رثاء الأندلس

(لأبي البقاء الرندي)

(رحمه الله – ق٧هـ)

*

لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
فلا يُغَرَّ بِطيبِ العيشِ إنسانُ

جمع الشيخ

عِيسَى بْنُ مُحَمَّد الشَّامِيّ (ق ١٥هـ)

كنوز الأندلس

رثَاء الْأَنْدَلُس

(لِأَبِي الْبَقاء الرّنْدِيّ رحِمَهُ اللّٰهُ)

*

لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ

فلا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إنْسَانُ

جمع الشيخ

أَبُو عَبْد اللهِ عِيسَى بْنُ مُحَمَّد بْن إبراهيم الشَّامِيّ (ق ١٥هـ)

بكنوز الأندلس

بسم الله الرحمن الرحيم

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مُؤَلَّفَات وَتَحْقِيقَات / الشَّيْخ أَبِي عَبْدِ اللهِ عِيسَى الشَّامِيّ بْنُ مُحَمَّد الحجازي بْنِ إبراهيمَ الحجازي

حُقوقُ النَّشرِ وَالطَّبعِ وَالنَّسْخ

قَالَ اللهُ ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾

قال الامام أحمد بن حنبل (امام أهل السنة والجماعة) حَدَّثَنَا أَبُو كَامِلٍ، حَدَّثَنَا حَمَّادٌ، عَنْ عَلِيِّ بْنِ الْحَكَمِ، عَنْ عَطَاءِ بْنِ أَبِي رَبَاحٍ ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «مَنْ سُئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أُلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»

فَنَقُولُ وَبِاللهِ تَعَالَى التَّوْفِيق إِنَّ كُلّ مَا كَتَبْنَاهُ وَجَمَعْنَاهُ مِنْ حَقٍّ فَهُوَ لِكُلِّ مُوَحِّدٍ يَنْسَخُهُ يَنْشُرُهُ يَطْبَعُهُ يَقْرَأُهُ وَأَن لَا تُتَّخَذ هَذِهِ الْمُصَنَّفَات وَالرَّسَائِل تِجَارَة يُتَّجَر بِهَا لِغَرَضِ الْكَسْبِ وَالْمَنْفَعَة فَهِيَ لِوَجْهِ اللَّهِ خَالِصَة نَسْأَلُ اللهَ الْقَبُول . . . ق ١٥ لِهِجْرَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّد الْخَلِيل

مُقَدِّمَة

الْحَمْدُ لِلَّهِ نَحْمَدُهُ وَنَسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلا مُضِلَّ لَهُ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلا هَادِيَ لَهُ وَأَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلا اللَّهُ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَمَّا بَعْدُ

قال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ [آل عمران: ١٠٢]

قال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾﴾ [النساء:١]

قال الله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ ءَاذَوْاْ مُوسَىٰ فَبَرَّأَهُ ٱللَّهُ مِمَّا قَالُواْ ۚ وَكَانَ عِندَ ٱللَّهِ وَجِيهًا ﴿٦٩﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧١﴾﴾ [الأحزاب: ٧٠ و٧١].

أما بعد: فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللهِ وَأَحْسَنَ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ وَشَرَّ الْأُمُورِ مُحْدَثَاتُهَا وَكُلُّ مُحْدَثَةٍ بِدْعَةٌ وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ

مرت على الأمة المرحومة حوادث عظام و أهوال جسام على مر التاريخ فمقتل عمر ثم عثمان ثم علي ﷺ وتفرق بعد اجتماع ففي الدين تارة وفي الديار تارة والله العاصم

ومن جملة ما حدث من الأهوال في العصر المتأخر غروب شمس الأندلس وهي تحت حكم عُبَّاد الصليب (وهي الجزيرة المشهورة بحسنها وخصائصها وهي القلعة العظيمة والقاعدة الصلبة) بعد أن كانت بيد المسلمين والله المستعان

ففي هذه المصيبة
(وما أظن أن بعد هذه المصيبة المتأخرة مصيبة أعظم إلا ما حدث في بغداد وجملة المعمورة من غزو التتار الكفار)
كَتب أهل التاريخ والعلم في فضل الأندلس والحث على استرجاعها وكتب أهل الشعر والبلاغة القصائد في رثائها وكتب أهل الترحال أوصافها وما فيها من الفضائل والخصائص والقلاع والحصون

(والله أسأل أن يعيدها للمسلمين)

ومن جملة البلغاء والشعراء الذين رثوا الأندلس (أبو البقاء الرندي)

ذكر في مطلعها سنة الله الكونية وهي المداولة وذكر حال ملوك الأرض في القديم وما صاروا إليه من زوال ملكهم وهلاكهم ثم مهد في ذكر الهول والخطب الجلل ثم ذكره مع ذكر فضل ما فقد

(أسلوب بليغ يضع السامع بين سماع المصيبة ثم يضعه في موضع الحسرة حين ذكر فضل ما فقد بسبب حلول المصيبة ليجلب العواطف والحمية)

ثم ذكر الحسرة والحزن مما وقع متجسداً على الحنيفية البيضاء والمساجد والعيدان ثم ذكر الحال العام من أسر وقتل وسبي ثم ذكر التشرذم والتقاطع

فيا لها من قصيدة تسيل رقة وعذوبة .

ففي هذه الصفحات اليسيرة نذكر الآتي

* ترجمة صاحب القصيدة

* ذكر القصيدة كاملة مع الزيادات والاختلاف

اعتمدنا على ثلاث أصول

١– أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض – شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني

٢– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني

٣– ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا – شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الخفاجي

فنذكر القصيدة كما في أزهار الرياض فإن وقع اختلاف أو زيادة ذكرناها مع البيان

* الحاوشي
– ذكر ما يحتاج الى بيان

ترجمة الأديب

*** قال أبو عبد الله مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي (المتوفى: ٧٠٣ هـ)**

صالحُ بن أبي الحَسَن يَزيدَ بن صالح بن موسى بن أبي القاسم بن عليّ بن شَريف، رُنْديّ، أبو الطّيِّب، ابنُ شَريف.

رَوى عن آباءِ الحَسَن: أَبيه والدَّبّاج وابن الفَخّار الشَّرِيشي وابن قُطْرال، وأبي الحُسَين بن زَرْقُون، وأبي القاسم ابن الجَدِّ التّونُسي.

رَوى عنه جماعةٌ من أصحابِنا، وكتَبَ إليّ بإجازةِ ما رَواهُ وألَّفه وأنشَأَه نَظْمًا ونَثْرًا، وكان خاتمةَ الأُدباء بالأندَلُس بارعَ التصرُّف في منظوم الكلام ومنثورِه، فقيهًا حافظًا فَرَضيًّا متفنّنًا في معارفَ جَليلة نبيلَ المَنازِع متواضِعًا، مقتصِدًا في أحوالِه، وله مقاماتٌ بديعة في أغراضٍ شتى، وكلامُه نظمًا ونثرًا مُدوَّن، وصَنَّف في الفرائضِ وأعمالِها مختصَرًا نافعًا نَظْمًا ونَثْرًا، وله تأليفٌ في العَروض وتأليفٌ في صَنْعة الشِّعر سَمّاه "الكافي في علم القوافي" وأودَعَه جُملةً وافرةً من نَظْمه،

فمنه في باب التشبيه (الخفيف):

عَلِّلاني بذِكْرِ تلك اللّيالي ... وعهودٍ عهِدتُها كاللَّآلي

لستُ أنسَى للحُبِّ ليلةَ أُنْسٍ ... صالَ فيها على النَّوى بالوِصالِ

غَفَلَ الدّهرُ والرَّقيبُ وبِتْنا ... فعجِبْنا منَ اتّفاقِ المُحالِ
ضَمَّنا ضمَّةَ الوِشاحِ عِنَاقٌ ... بيمينٍ معقودةٍ بشِمالِ
فبَرَدْتُ الحَشَا بلَثْمِ بَرودٍ ... لم يزَلْ بي حتّى خَبَا لي خَبَالي
وكؤوسُ المُدام تَجْلو عَروسًا ... أضحَكَ المَزْجُ ثَغْرَها عن لآلِ
ولنَحْرِ الدُّجى ذوابلُ شَمْعٍ ... عَكَسَتْ في الزُّجاجِ نُورَ الذُّبالِ
والثُّريّا تَمُدُّ كفًّا خَضِيبًا ... أَعجَمَتْ بالسِّماكِ نونَ الهلالِ
وكأنّ الصّباحَ إذْ لاح سَيْفٌ ... يُنتضَى مِنْ غينٍ وميمٍ ودالِ
ومسَحْنا الكَرَى إلى غانياتٍ ... غانياتٍ بكلِّ سحرٍ حلالِ
في رياضٍ تَبَسَّمَ الزَّهرُ فيها ... لغَمامٍ بكَتْ دموعَ دلالِ
وجَرَى عاطرُ النّسيم عليلًا ... يتَهادَى بين الصَّبا والشَّمالِ
فاكتَسَى النَّهرُ لَأْمةً منهُ لمّا ... أنْ رمَى القَطْرُ نحوَه بنِبالِ
يا ليالي مِنًى سلامٌ عليها ... أتراها تعودُ تلك اللّيالي

قوله: "أعجَمَتْ بالسِّماك نونَ الهلالِ" غلَطٌ جَرى عليه جُمهورُ الكُتّاب؛ لأنّ النونَ المتطرّفةَ لا وَجْه لنَقْطها، إذْ هي متميّزةٌ بصورتِها، وإنّما تُنْقَطُ مبتدأً بها وموَسَّطة، وحالُها في ذلك حالُ الفاءِ والقافِ والياءِ المسفولة، فإنّهنّ إذا ما تطَرَّفْن تميَّزْنَ بصُوَرِهنّ، فاستُغنِيَ عن نَقْطِهنّ؛ إذِ الداعي إلى النَّقْط خوفُ الإلباس، فإذا ارتفعَ الإلباسُ كان الإعجامُ عَبَثًا وكُلفةً لا جَدْوى فيها ، والهلالُ إنما يُشبَّهُ بالنونِ المتطرّفة كما يُشبَّهُ بالراء أول ليلة، واللهُ أعلم.

ومنه في التشبيهِ أَيضًا من قصيدة (الوافر):

وليلِ صبابةٍ كالدهرِ طُولًا ... تنكَّرَ لي وعَرَّفَهُ التَّمامُ
كأنّ سماءَه رَوْضٌ تَحلَّى ... بزَهْرِ النُّجومِ والشّرقُ الكُمامُ
كأنّ البدرَ تحتَ الغَيْمِ وجهٌ ... عليه من ملاحتِهِ لِثَامُ
كأنّ الكوكبَ الدُّرّيَّ كأسٌ ... وقد رَقَّ الزُّجاجةُ والمُدامُ
كأنَّ سُطورَ أفلاكِ الدَّراري ... قِسِيٌّ والرّجومُ لها سهامُ
كأنّ مدارَ قُطْبِ بناتِ نَعْشٍ ... نَدِيٌّ والنجومُ به نِدَامُ
كأنّ بناتِه الكُبرى جَوارٍ ... جَوارٍ والسُّهَى فيها غلامُ
كأنّ بناتِه الصُّغرى جُمَانٌ ... على لَبَّاتِها منه نظامُ
كواكبُ بِتُّ أرعاهُنَّ حتى ... كأني عاشق وهْيَ الذِّمامُ
إلى أن مَزَّقَتْ كفُّ الثّريا ... جُيوبَ الأُفْقِ وانجابَ الظلامُ
فما خِلتُ انصداعَ الفجرِ إلّا ... قِرابًا يُنْتَضَى منه حُسامُ
وما شَبَّهتُ وجهَ الشمسِ إلا ... لوجهِكَ أيها الملكُ الهُمَامُ
(وإنْ شَبَّهتُه بالبدرِ يومًا ... فللبدرِ المَلاحةُ والتَّمامُ)

* الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة (ترجمة – ٢٦٣)

* قال مُحَمَّد بن عبد الله بن سعيد السلماني الغرناطي الأندلسي، أبو عبد الله، الشهير بلسان الدين ابن الخطيب (المتوفى: ٧٧٦هـ)

صالح بن يزيد بن صالح بن موسى بن أبي القاسم ابن علي بن شريف النّفزي من أهل رندة، يكنى أبا الطّيّب.

(حاله)

قال ابن الزّبير: شاعر مجيد في المدح والغزل، وغير ذلك. وعنده مشاركة في الحساب والفرائض. نظم في ذلك. وله تواليف أدبية، وقصائد زهدية، وجزء على حديث جبريل عليه السلام، وغير ذلك مما روى عنه. وكان في الجملة معدودا في أهل الخير، وذوي الفضل والدّين. تكرّر لقائي إياه، وقد أقام بمالقة أشهرا، أيام إقرائي. وكان لا يفارق مجالس إقرائي، وأنشدني كثيرا من شعره.

وقال ابن عبد الملك : كان خاتمة الأدباء بالأندلس، بارع التّصرّف في منظوم الكلام ومنثوره، فقيها حافظا، فرضيّا، متفنّنا في معارف شتى ، نبيل المقاصد ، متواضعا، مقتصدا في أحواله. وله مقامات بديعة في أغراض شتّى، وكلامه، نظما ونثرا، مدوّن.

(مشيخته)

روى عن آباء الحسن: أبيه، والدبّاج، وابن الفخّار الشّريشي، وابن قطرال، وأبي الحسن بن زرقون، وأبي القاسم ابن الجدّ

(تواليفه)

ألّف جزءا على حديث جبريل، وتصنيفا في الفرائض وأعمالها، وآخر في العروض، وآخر في صنعة الشعر سماه «الوافي ، في علم القوافي» .
وله كتاب كبير سماه «روضة الأنس، ونزهة النّفس» .

(دخوله غرناطة)

وكان كثير الوفادة على غرناطة، والتردّد إليها، يسترفد ملوكها، وينشد أمراءها، والقصيدة التي أوّلها: «أواصلتي يوما وهاجرتي ألفا» ، أخبرني شيخنا أبو عبد الله اللّوشي أنه نظمها باقتراح السلطان، رحمه الله، وقد أوعز إليه ألّا يخرج عن بعض بساتين الملك حتى يكملها في معارضة مُحَمَّد بن هاني الإلبيري.

(شعره)

وهو كثير، سهل المأخذ، عذب اللفظ، رائق المعنى، غير مؤثر للجزالة.

فمن ذلك قوله، رحمه الله، في غرض المدح من السّلطانيات : (الوافر)
سرى والحبّ أمر لا يرام ... وقد أغرى به الشّوق الغرام
وأغفى أهلها إلّا وشاة ... إذا نام الحوادث لا تنام
وما أخفاه بين القوم إلّا ... ضنى ولربما نفع السّقام

فنال بها على قدر مناه ... وبين القبض والبسط القوام
وأشهى الوصل ما كان اختلاسا ... وخير الحبّ ما فيه اختتام
وما أحلى الوصال لو أنّ شيئا ... من الدّنيا للذّته دوام
بكيت من الفراق بغير أرضي ... وقد يبكي الغريب المستهام
أعاذلتي، وقد فارقت إلفي ... أمثلي في صبابته يلام؟
أأفقده فلا أبكي عليه؟ ... يكون أرقّ من قلبي الحمام
أأنساه فأحسبه كصبري ... وهل ينسى لمحبوب ذمام؟
رويدا، إنّ بعض اللّوم لوم ... ومثلي لا ينهنهه الملام
ويوم نوى وضعت الكفّ فيه ... على قلب يطير به الهيام
ولولا أن سفحت به جفونا ... تفيض دما لأحرقها الضّرام
وليل بتّه كالدّهر طولا ... تنكّر لي وعرّفه التّمام
كأنّ سماءه زهر تجلّى ... بزهر الزّهر والشّرق الكمام
كأنّ البدر تحت الغيم وجه ... عليه من ملاحته لثام
كأنّ الكوكب الدّرّي كأس ... وقد رقّ الزّجاجة والمدام
كأنّ سطور أفلاك الدّراري ... قسيّ والرّجوم لها سهام
كأنّ مدار قطب بنات نعش ... نديّ والنجوم به ندام
كأنّ بناته الكبرى جوار ... جوار والسّهى فيها غلام
كأنّ بناته الصّغرى جمان ... على لبّاتها منها نظام
كواكب بتّ أرعاهنّ حتى ... كأنّي عاشق وهي الذّمام
إلى أن مزّقت كفّ الثّريّا ... جيوب الأفق وانجاب الظلام

فما خلت انصداع الفجر إلّا ... قرابا ينتضى منه حسام
وما شبّهت وجه الشمس إلّا ... لوجهك أيها الملك الهمام
وإن شبّهته بالبدر يوما ... فللبدر الملاحة والتّمام
تهلّل منه حسن الدهر حتى ... كأنّك في محيّاه ابتسام
وعرف ما تنكّر من معال ... كأنّك لاسمها ألف ولام
وملء العين منك جلال مولى ... صنائعه كغرّته وسام
إذا ما قيل في يده غمام ... فقد بخست وقد خدع الغمام
وحشو الدّرع أروع غالبيّ ... يراع بذكره الجيش اللهام
إذا ما سلّ سيف العزم يوما ... على أمر فسلّم يا سلام
تناهى مجده كرما وبأسا ... فما يدري أمحيا أم حمام
نمّته للمكارم والمعالي ... سراة من بني نصر كرام
هم الأنصار هم نصروا وآووا ... ولولا المسك ما طاب الختام
وهم قادوا الجيوش لكلّ فتح ... ولولا الجدّ ما قطع الحسام
وهم منحوا الجزيرة من حماهم ... جوارا لا يذمّ ولا يضام
فمن حرب تشيب له النّواصي ... وسلم تحيّته سلام
بسعدك، يا مُحَمَّد، عزّ دين ... له بعد الإله بك اعتصام
وباسمك تمّ للإسلام سلم ... وغبّ السّلم نصر مستدام
وكان مرامه صعبا ولكن ... بحمد الله قد سهل المرام
أدام الله أمرك من أمير ... ففيه لكل مكرمة دوام
وأنت العروة الوثقى تماما ... وما للعروة الوثقى انفصام
وروح أنت والجسم المعالي ... ومعنى أنت واللّفظ الأنام

إذا ما ضاقت الدنيا بحرّ ... كفاه لثم كفّك والسلام

ومن شعره أيضا: (الطويل)

أواصلتي يوما وهاجرتي ألفا ... وصالك ما أحلى وهجرك ما أجفا!
ومن عجب للطّيف أن جاء واهتدى ... فعاد عليلا عاد كالطّيف أم أخفى
فيا سائرا، لولا التخيّل ما سرى ... ويا شاهدا، لولا التعلّل ما أغفى
ألمّ فأحياني وولّى فراعني ... ولم أر أجفى منك طبعا ولا أشفى
بعيني شكواي للغرام وتيهه ... إلى أن تثنّى عطفه فانثنى عطفا
فعانقته شوقا وقبّلته هوى ... ولا قبلة تكفي ولا لوعة تطفا

ومن نزعاته العجيبة قوله، وقد سبق إلى غرضه غيره: (البسيط)

يا طلعة الشمس إلّا أنه قمر ... أمّا هواك فلا يبقي ولا يذر
كيف التخلّص من عينيك لي ومتى ... وفيهما القاتلان الغنج والحور
وكيف يسلي فؤادى عن صبابته ... ولو نهى النّاهيان الشّيب والكبر
أنت المنى والمنايا فيك قد جمعت ... وعندك الحالتان النّفع والضّرر
ولي من الشّوق ما لا دواء له ... ومنك لي الشّافيان القرب والنّظر
وفي وصالك ما أبقي به رمقي ... لو ساعد المسعدان الذّكر والقدر
وكان طيف خيال منك يقنعني ... لو يذهب المانعان الدّمع والسّهر
يا نابيا، لم يكن إلّا ليملكني ... من بعده المهلكان الغمّ والغير
ما غبت إلّا وغاب الجنس أجمعه ... واستوحش المؤنسان السّمع والبصر
بما تكنّ ضلوعي في هواك بمن ... يعنو له السّاجدان النّجم والشجر

أدرك بقيّة نفس لست مدركها ... إذا مضى الهاديان العين والأثر
ودلّ حيرة مهجور بلا سبب ... يبكي له القاسيان الدّهر والحجر
وإن أبيت فلي من ليس يسلمني ... إذا نبا المذهبان الورد والصّدر
مؤيّدا لملك بالآراء يحكمها ... في ضمنها المبهجان اليمن والظّفر
من كالأمير أبي عبد الإله إذا ما ... خانت القدمان البيض والسّمر
الواهب الخيل آلافا وفارسها ... إذا استوى المهطعان الصّرّ والصّبر
والمشبه اللّيث في بأس وفي خطر ... ونعمت الحليتان البأس والخفر
تأمّن الناس في أيامه ومشوا ... كما مشى الصّاحبان الشاة والنّمر
وزال ما كان من خوف ومن حذر ... فما يرى الدّايلان الخوف والحذر
رأيت منه الذي كنت أسمعه ... وحبّذا الطّيّبان الخبر والخبر
ما شئت من شيم عليا ومن شيم ... كأنها الرّائقان الظّلّ والزّهر
وما أردت من إحسان ومن كرم ... ينسى به الأجودان البحر والمطر
وغرّة يتلألأ من سماحتها ... كأنها النّهران الشمس والقمر
إيه، فلولا دواع من محبّته ... لم يسهل الأصعبان البين والخطر
نأيت عنه اضطرارا ثم عدت له ... كما اقتضى المبرمان الحلّ والسّفر
فإن قضى الله أن يقضي به أملي ... فحسبي المحسبان الظّلّ والثّمر
ولست أبعد إذ والحال متّسع ... أن يبلغ الغائبان السّؤل والوطر

ومن شعره في أغراض متعددة، قال في الليل والسّهر: (مجزوء السريع)
أطال ليلي الكمد ... فالدهر عندي سرمد
وما أظنّ أنه ... ليلة الهجر غد

يا نائما عن لوعتي ... عوفيت ممّا أجد
ارقد هنيّا إنّني ... لا أستطيع أرقد
لواعج ما تنطفي ... وأدمع تضطرد
وكبدي كبد الهوى ... وأين منّي الكبد؟
ولا تسل عن جلدي ... والله ما لي جلد

ومن شعره أيضا في المقطوعات: (السريع)
وليلة قصّر من طولها ... بزورة من رشا نافر
استوفر الدهر بها غالطا ... فأدغم الأوّل والآخر

وقال من قصيدة مغربة في الإحسان : (السريع)
وليلة نبّهت أجفانها ... والفجر قد فجّر نهر النهار
والليل كالمهزوم يوم الوغا ... والشّهب مثل الشّهب عند الفرار
كأنما استخفى السّها خيفة ... وطولب النّجم بثأر فثار
لذاك ما شابت نواصي الدّجى ... وطارح النّسر أخاه فطار
وفي الثّريّا قمر سافر ... عن غرّة غيّر منها الشّفار
كأنّ عنقودا بها ماثل ... إذ صار كالعرجون عند السّرار
كأنها تسبك دیناره ... وكفّها تفتل منه سوار
كأنما الظّلماء مظلومة ... تحكّم الفجر عليها فجار
كأنما الصّبح لمشتاقه ... إقبال دنيا بعد ذلّ افتقار

كأنما الشمس وقد أشرقت ... وجه أبي عبد الإله استنار

وفي وصف البحر والأنهار وما في معنى ذلك: (البسيط)
البحر أعظم مما أنت تحسبه ... من لم ير البحر يوما ما رأى عجبا
طام له حبب طاف على زورق ... مثل السماء إذا ما ملئت شهبا

وقال في وصف نهر: (الطويل)
وأزرق محفوف بزهر كأنّه ... نجوم بأكناف المجرّة تزهر
يسيل على مثل الجمان مسلسلا ... كما سلّ عن غمد حسام مجوهر
وقد صافح الأدواح من صفحاته ... وحتى حباب بالنّسيم مكسّر
فما كان في عطف الخليج قلامة ... وما كان في وجه الغدير فمغفر

وفي العقل والتّغرّب: (السريع)
ما أحسن العقل وآثاره ... لو لازم الإنسان إيثاره
يصون بالعقل الفتى نفسه ... كما يصوم الحرّ أسراره
لا سيما إن كان في غربة ... يحتاج أن يعرف مقداره

ومن وصفه الجيش والسلاح: (الكامل)
وكتيبة بالدّارعين كثيفة ... جرّت ديول الجحفل الجرّار
روض المنايا بينها القضب التي ... زفّت بها الرّايات كالأزهار
فيها الكماة بنو الكماة كأنهم ... أسد الشّرى بين القنا الخطّار

متهلّلين لدى اللّقاء كأنهم ... خلقت وجوههم من الأقمار
من كلّ ليث فوق برق خاطف ... بيمينه قدر من الأقدار
من كلّ ماض قد تقلّد مثله ... فيصبّ آجالا على الأعمار
لبسوا القلوب على الدروع وأسرعوا ... لأكفّهم نارا لأهل النار
وتقدّموا ولهم على أعدائهم ... حنق العدا وحميّة الأنصار
فارتاع ناقوس بخلع لسانه ... وبكى الصّليب لذلّة الكفّار
ثم انثنوا عنه وعن عبّاده و ... قد أصبحوا خبرا من الأخبار

وفي السّيف: (البسيط)

وأبيض صيغ من ماء ومن لهب ... على اعتدال فلم يخمد ولم يسل
ماضي الغرار يهاب العمر صولته ... كأنما هو مطبوع من الأجل
أبهى من الوصل بعد الهجر منظره ... حسنا وأقطع من دين على ملل
وأسمر ظنّ أن ما كل سابغة ... فخاض كالأيم يستشفي من النّهل
هام الكماة به حبّا ولا عجب ... من لوعة بمليح القدّ معتدل
إذا الطّعين تلقّاه وأرعفه ... حسبته عاشقا يبكي على طلل

ومن ذلك قوله في وصف قوس: (الوافر)

تنكّبها كحاجبه وسوّى ... بأهداب الجفون لها نبالا
فلم أر قبله بدرا منيرا ... تحمّل فوق عاتقه هلالا

ومن ذلك في وصف قلم: (المتقارب)

وأصفر كالصّبّ في رونق ... تظنّ به الحبّ ممن نحل

بديع الصّفات حديد السّبات ... يطول الرّماح وإن لم يطل

يعبّر عمّا وراء الضمير ... ويفعل فعل الظّبا والذّبل

ومن ذلك قوله فيما يظهر منها: (البسيط)

تفاخر السّيف فيما قيل والقلم ... والفصل بينهما لا شكّ منفهم

كلاهما شرف لله درّهما ... وحبّذ الخطّتان الحكم والحكم

ومن ذلك قوله في سكّين الدواة: (الخفيف)

أنا صمصامة الكتابة ما لي ... من شبيه في المرهفات الرّقاق

فكأنّي في الحسن يوم وصال ... وكأنّي في القطع يوم فراق

ومن ذلك قوله في المقصّ: (الوافر)

ومعتنقين ما اشتهرا بعشق ... وإن وصفا بضمّ واعتناق

لعمر أبيك ما اعتنقا لمعنى ... سوى معنى القطيعة والفراق

ومن ذلك قوله في الورد: (مخلع البسيط)

الورد سلطان كلّ زهر ... لو أنّه دائم الورود

بعد خدود الملاح شيء ... ما أشبه الورد بالخدود

ومن ذلك قوله في الخيريّ: (السريع)

وأزرق كمثل السماء ... فيه لمن ينظر سرّ عجيب
شحّ مع الصّبح بأنفاسه ... كأنما الصّبح عليه رقيب
وباح بالليل بأسراره ... لمّا رأى اللّيل نهار الأريب

ومن ذلك قوله في الرّيحان: (الوافر)

وأخضر فستقيّ اللون غضّ ... يروق بحسن منظره العيونا
أغار على التّرنج وقد حكاه ... وزاد على اسمه ألفا ونونا

وقال من جملة قصائده المطوّلات التي تفنّن فيها، رحمه الله: (الطويل)

وغانية يغني عن العود صوتها ... وجارية تسقي وساقية تجري
بحيث يجرّ النهر ذيل مجرّة ... يرفّ على حافاتها الزّهر كالزّهر
وقد هزّت الأرواح خصر كتائب ... بألوية بيض على أسل سمر
رمى قزح نبلا إليها فجرّدت ... سيوف سواقيها على دارع النّهر
وهبّت صبا نجد فجرّت غلائلا ... تجفّف دمع الطّلّ عن وجنة الزّهر
كأنّ بصفح الرّوض وشي صحيفة ... وكالألفات القضب والطّرس كالتّبر
كأنّ به الأقحوان خواتما ... مفضّضة فيها فصوص من التّبر
كأنّ به النّرجس الغضّ أعيا ... ترقرق في أجفانها أدمع القطر
كأنّ شذا الخيريّ زورة عاشق ... يرى أنّ جنح اللّيل أكتم للسّرّ

وقال في وصف الرّمان: (البسيط)

لله رمّانة قد راق منظرها ... فمثلها ببديع الحسن منعوت

القشر حقّ لها قد ضمّ داخله ... والشّحم قطن لها والحبّ ياقوت

ومن ذلك قوله في الجزر: (البسيط)

انظر إلى جزر في اللون مختلف ... البعض من سبج والبعض من ذهب

إن قلت: قصب فقل: قصب بلا زهر ... أو قلت: شمع فقل: شمع بلا لهب

وفي الاغتراب وما يتعلّق به مما يقرب من المطولات: (الوافر)

غريب كلّما يلقى غريب ... فلا وطن لديه ولا حبيب

تذكّر أصله فبكى اشتياقا ... وليس غريبا أن يبكي غريب

ومما هاج أشواقي حديث ... جرى فجرى له الدّمع السّكوب

ذكرت به الشّباب فشقّ قلبي ... ألم تر كيف تنشقّ القلوب؟

على زمن الصّبا فليبك مثلي ... فما زمن الصّبا إلّا عجيب

جهلت شبيبتي حتى تولّت ... وقدر الشيء يعرف إذ يغيب

ألا ذكر الإله بكل خير ... بلادا لا يضيع بها أديب

بلاد ماؤها عذب زلال ... وريح هوائها مسك رطيب

بها قلبي الذي قلبي المعنّى ... يكاد من الحنين له يذوب

رزقت الصّبر بلين أبي وأمي ... كلانا بعد صاحبه كثيب

ألا فتوخّ بعدي من أؤاخي ... ودع ما لا يريب لما يريب

ولا تحكم بأول ما تراه ... فإنّ الفجر أوله كذوب

ألا إنا خلقنا في زمان ... يشيب بهوله من لا يشيب
وقد لذّ الحمام وطاب عندي ... وعيشي لا يلذّ ولا يطيب
لحى الله الضّرورة فهي بلوى ... تهين الحرّ والبلوى ضروب
رأيت المال يستر كلّ عيب ... ولا تخفى مع الفقر العيوب
وفقد المال في التّحقيق عندي ... كفقد الرّوح ذا من ذا قريب
وقد أجهدت نفسي في اجتهاد ... وما أن كلّ مجتهد مصيب
وقد تجري الأمور على قياس ... ولو تجري لعاش بها اللّبيب
كأنّ العقل للدّنيا عدوّ ... فما يقضي بها أربا أريب
إذا لم يرزق الإنسان بختا ... فما حسناته إلّا ذنوب

ومن نسيبه قوله في بادرة من حمّام: (الكامل)
برزت من الحمّام تمسح وجهها ... عن مثل ماء الورد بالعنّاب
والماء يقطر من ذوائب شعرها ... كالطّل يسقط من جناح غراب
فكأنها الشمس المنيرة في الضّحى ... طلعت علينا من خلال سحاب

ومن مقطوعاته أيضا قوله: (الكامل)
ومتيّم لو كان صوّر نفسه ... ما زادها شيئا سوى الإشفاق
ما كان يرضى بالصّدود وإنّما ... كثرت عليه مسائل العشّاق

وقال: (مخلع البسيط)
وافى وقد زانه جمال ... فيه لعشّاقه اعتذار

ثلاثة ما لها مثال: ... الوجه والخدّ والعذار
فمن رآه رأى رياضا: ... الورد والآس والبهار

ومن ذلك قوله في ذمّ إخوة السوء: (الكامل)
ليس الأخوّة باللّسان أخوّة ... فإذا تراد أخوّتي لا تنفع
لا أنت في الدّنيا تفرّج كربه ... عنّي ولا يوم القيامة تشفع

وقال كذلك: (الكامل)
ولقد عرفت الدّهر حين خبرته ... وبلوت بالحاجات أهل زمان
فإذا الأخوّة باللسان كثيرة ... وإذا الدّراهم ميلق الإخوان

ومن ذلك قوله في ثقيل: (المتقارب)
تزلزلت الأرض زلزالها ... فقلت لسكانها: ما لها؟
فقالوا: أتانا أبو عامر ... فأخرجت الأرض أثقالها

ومن ذلك قوله في الصّبر: (السريع)
الدهر لا يبقي على حالة ... لكنه يقبل أو يدبر
فإن تلقّاك بمكروهه ... فاصبر فإنّ الدّهر لا يصبر

ومن ذلك قوله في الموت: (السريع)
الموت سرّ الله في خلقه ... وحكمة دلّت على قهره

ما أصعب الموت وما بعده ... لو فكّر الإنسان في أمره
أيام طاعات الفتى وحدها ... هي التي تحسب من عمره
لا تلهك الدنيا ولذّاتها ... عن نهي مولاك ولا أمره
وانظر إلى من ملك الأرض هل ... صحّ له منها سوى قبره؟

(نثره)

قال في كتاب «روضة الأنس» ما نصّه:
«ويتعلّق بهذا الباب ما خاطبني به الفقيه الكاتب الجليل أبو بكر البرذعي، من أهل بلدنا، أعزّه الله: أخبرك بعجاب، إذ لا سرّ دونك ولا حجاب، بعد أن أتقدّم إليك أن لا تعجل باللوم إليّ، قبل علم ما لديّ، فإنّ الدهر أخدع من كفّة الحابل، وقلب الإنسان للآفات قابل. مشيت يوما إلى سوق الرّقيق، لأخذ حقّ فؤاد عتيق، فرأيت بها جارية عسجدية اللون، حديثة عهد بالصّون، متمايلة القدّ، قائمة النّهد، بلحظ قد أوتي من السّحر أوفر حظّ، وفم كشرطة رشحت بدم، داخله سمطان لولا هما ما عرف النّظم، ولا حكم على الدّر للعظم، في صدغها لامان ما خطّ شكلهما قلم، ولا قصّ مثلهما حلم. لها جيد تتمنّاه الغيد، وخصر هو قبضة الكفّ في الحصر، وردف يظلمه من يشبه به بالحقف، ويدان خلقا للوشي، وقدمان أهلّتا للّثم لا للمشي، فتطاولت إليه الأعناق، وبذلت فيها الأعلاق، والمياسير عليها مغرم في القوم، وتسوّم أهل السّوم، وكل فيها يزيد، ليبلغ ما يريد، إلى أن جاء فتى صادق في حبّه، لا يبالي بفساد ماله في صلاح قلبه، فعدّ المال عدّا، ولم يجد غيره من التسليم بدّا. فلمّا فاتتني، تركت الأشواق وأتتني، وانتقضت عزائم صبري فما أتتني، فالله الله،

تدارك أخاك سريعا، قبل أن تلفيه من الوجد صريعا، واستنزله خادما، قبل أن تصبح عليه نادما، ولن أحتاج أن أصفها إليك، مع ما قصصته عليك، وقد أهديتها دررا، فخذها على جهة الفكاهة والدّعابة: (الوافر)

ولا تطلع أخا جهل عليها ... فمن لم يدر قدر الشيء عابه

فأجبته: نعم نعم، أنعم الله بالك، وسنى آمالك، أنا بحول الله أرتاد لك من نحو هاتيك، ما يسليك ويؤاتيك، وإلّا فبيضا كاللّجين، هل القلب والعين، زهرة غصن في روضة حسن، ذات ذوائب، كأنها الليل على نهار، أو بنفسج في بهار.لها وجه أبهى من الغنا، وأشهى من نيل المنى، فيه حاجبان كأنهما قوس صنعت من السّبح، ورصّعت بعاج من البلح، على عينين ساحرتين، بالعقل ساخرتين، بهما تصاب الكبود، وتشقّ القلوب قبل الجلود، إلى فم كأنّه ختام مسك، على نظام سلك، سقاه الحسن رحيقه، فأنبتت درره وعقيقه، وجيد في الحسن وحيد على صدر كأنه من مرمر، فيه حقّتا عاج طوّقتا بعنبر، قد خلقتا للعضّ، في جسم غضّ، له خصر مدمج، وردفه يتموّج، وأطراف كالعنم، رقمت رقم القلم، من اللائي شهدن ابن المؤمّل، وقال في مثلها الأول، إن هي تاهت فمثلها تاها، أو هي باهت فمثلها باها، من أين للغصن مثل قامتها أو أين للبدر مثل مرآها، ما فعلت في العقول صابية ما فعلت في العقول عيناها، تملكني بالهوى وأملكها، فهأنا عبدها ومولاها، فأيّهما لست بذلت فيه الجهد، وأرقيت للمجد والودّ إن شاء الله تعالى. وأنا فيما عرض لسيدي، حفظه الله، على ما يحبّ، أعذره ولا أعذله، وأنصره ولا أخذله، لكني أقول كما قال بعض الحكماء: لا ينبغي لمن قلبه رقيق، أن يدخل سوق الرّقيق، إلّا أن يكون قد جمع بين المال، والجمال يتنافس في العالي،

ويسترخص بالثمن الغالي، ولا يبالي بما قال الأئمة، إذا وجد من يلائمه، كما قال الشاعر:(الخفيف)

ما انتفاع المحبّ بالمال إذ لم ... يتوصّل به لوصل الحبيب

إنما ينبغي بحكم الهوى أن ... ينفق المال في صلاح القلوب

والسلام على سيدي، ما كانت الفكاهة من شأن الوفاء، والمداعبة من شيم الظّرفاء، ورحمة الله وبركاته.

(مولده – وفاته)

ولد في محرم سنة إحدى وستمائة.

توفي في عام أربعة وثمانين وستمائة.

نقلت من خط صاحبنا الفقيه المؤرخ أبي الحسن بن الحسن، قال: أنشدني الشيخ الرّاوية الأديب القاضي الفاضل أبو الحجاج يوسف بن موسى بن سليمان المنتشافري، قال: أنشدني القاضي الفاضل أبو القاسم ابن الوزير أبي الحجاج ابن الحقالة، قال: أنشدني الأديب أبو الطيب صالح بن أبي خالد يزيد بن صالح بن شريف الرّندي لنفسه، ليكتب على قبره: (الطويل)

خليليّ، بالودّ الذي بيننا اجعلا ... إذا متّ قبري عرضة للتّرحّم

عسى مسلم يدنو فيدعو برحمة ... فإني محتاج لدعوة مسلم

---

* الإحاطة في أخبار غرناطة (ج٣ – ص٢٧٥)

القصيدة ـ دون تعليق

*** قال شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)**

(وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته / قاله بعد الانتهاء من القصيدة)

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى (نفح الطيب)

ولله در الإمام العلامة خاتمة أدباء الأندلس، أبي الطيب صالح أبن شريف الزندي رحمه الله إذ قال يندب بلاد الأندلس، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين، وانقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده " لقد أسمعت لو ناديت حياً ".

لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ... فلا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إنْسَانُ

هيَ الأمورُ كَما شَاهَدْتُها دُوَلٌ ... مَن سَرَّهُ زمنٌ ساءتْهُ أزْمانُ

وهذهِ الدَّارُ لا تُبقِي على أَحدٍ ... ولا يَدُومُ على حالٍ لها شانُ

(وعَالَمَ الكَوْنِ لا تَبقَى محاسِنُه ... ولا يَدُوْمُ على حالٍ لَهَا شَانُ) (ذكرها الخفاجي)

يمُزِّقُ الدَّهرُ (مِنَّا) حتماً كلَّ سَابِغَةٍ ... إذا نَبَتْ مَشْرَفِيَّات وخُرْصانُ (ذكرها الخفاجي)

أينَ الملُوكُ ذوو التِّيجانِ مِن يَمَنٍ ... وأينَ منهم أكاليلٌ وتِيجانُ

وأين ما شادَهُ شَدَّادُ من إرَمٍ ... وأين ما سَاسَهُ في الفُرْسِ سَاسَانُ

وأينَ ما حَازَهُ قَارُونُ مِن ذَهَبٍ ... وأينَ عادٌ وشدَّادٌ وقَحْطانُ

أتىَ على الكُلِّ أَمْرٌ لا مَرَدَّ لَهُ ... حتى قَضَوا فَكَأَنَّ (الكلَّ) القومَ ما كانُوا (ذكرها الخفاجي)

وصَارَ مَا كَانَ مِن مُلْكٍ ومِن مَلِكٍ ... كَما حَكَى عن خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنانُ

دارَ الزَّمانُ على دَارَا وقَاتِلِهِ ... وأَمَّ كِسْرَى فما آواهُ إيوَانُ

كأنّما الصَّعْبُ لم يَسْهُلْ لَهُ سَبَبٌ ... يومًا (ولم يِمْلِكِ) ولا مَلَكَ الدُّنْيَا سُلَيْمانُ (ذكرها الخفاجي)

فَجائِعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنوَّعةٌ ... وللزَّمانِ مَسرَّاتٌ وأحْزانُ

ولِلْمَصَائِبِ (وللحوادِثِ) سُلْوانٌ يُهَوِّنُها (يُسَهِّلُها) (نفح الطيب)

وَما لِمَا حَلَّ بالإسلامِ سُلْوَانُ

دَهَى الجزيرةَ (خَطْبٌ) أمرٌ لا عَزَاءَ لهُ ... هَوىَ له أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ (ذكرها الخفاجي)

أصابَهَا العَينُ في الإسْلامِ (فامْتُحِنَتْ) ... فارْتُزِئَت حتى خلَتْ مِنهُ أقْطارٌ وبُلْدانُ (نفح الطيب)

فَاسألْ بَلَنْسِيَةً ما شأْنُ مُرْسَيةٍ ... وأينَ شاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ

وأين قُرْطُبَةٌ دارُ العُلومِ فكم ... من عالِمٍ قد سما فيها لهُ شانُ

وأَيْنَ حِمْصٌ وما تَحويهِ مِن نُزَهٍ(تُرَهٍ) ... ونَهْرُها العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمِلآنُ (ذكرها الخفاجي)

(كذا طُلَيْطُلَةٌ دارُ العلوم فَكَمْ ... مِن فاضِلٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَه شَانُ) (ذكرها الخفاجي)

(وأين غَرْناطَةٌ دارُ الجهادِ وكَمْ ... أُسْدٍ بِها وهُم في الحَرْبِ عُقْبانُ) (ذكرها الخفاجي)

(وأين حَمْراؤُها العَلْيا وزُخْرُفُهَا ... كأنَّها من جِنانِ الخُلْدِ عَدْنانُ) (ذكرها الخفاجي)

قَوَاعِدٌ كُنَّ أرْكَانَ البِلادِ فَما ... عَسَى (البُكاءُ) البَقاءُ إذا لم تَبْقَ أَرْكَانُ (ذكرها الخفاجي)

(وَالماءُ يَجْرِي بِسَاحَاتِ القُصُورِ بِها ... قَدْ حَفَّ جَدوَلَهَا زَهْرٌ وَرَيْحَانُ)

(وَنَهْرُها العَذْبُ يَحْكِي في تَسَلْسُلِهِ ... سُيُوفَ هِنْدٍ لَها في الجوِّ لَمَعانُ)

(وأينْ جَامِعُهَا المشْهُوْرُ كَمْ تُلِيَتْ ... في كلِّ وقْتٍ بِهِ آيٌ وفُرْقانُ)

(وعَالِمٌ كانَ فِيها لِلْجَهُولِ هُدَى ... مُدَرِّسٌ ولَهُ في العِلْمِ تِبْيَانُ)

(وعابِدٌ خاضِعٌ للهِ مُبْتَهِلٌ ... والدَّمعُ مِنْهُ على الخَدَّينِ طُوفَانُ)

(وأينَ مَالَقَةٌ مَرْسَى المراكِبِ كمْ أرْسَتْ بِسَاحَتِهَا فُلْكٌ وغُرْبانُ)

(وكَم بِداخِلِهَا مِن شَاعِرٍ فَطِنٍ وذِي فُنُونٍ لَهُ حِذْقٌ وتِبْيانُ)

(وكَمْ بِخَارِجِهَا مِن مَنْزَهٍ فَرِجٍ وَجَنَّةٍ حَوْلَهَا نَهْرٌ وبُسْتَانُ)

(وأينَ جَارَتُهَا الزَّهْرَاء وقُبَّتُها وأينَ يا قَومُ أَبْطَالٌ وفُرْسَانُ)

(وأيْنَ بَسْطَةُ دَارُ الزَّعْفَرانِ فَهَلْ رَآى شَبِيْهَاً لَها في الحُسْنِ إنسَانُ)

(وكَمْ شُجَاعٍ زَعِيْمٍ في الوَغَى بَطَلٍ بدَا له في العِدى فَتْكٌ وإمْعانُ)

(كم جَنْدلتْ يدُهُ مِن كافرٍ فَغدا تبْكيهِ مِن أرْضِهِ أهلٌ وولدَانُ)

(ووَادياً مَن غدَتْ بِالكُفرِ عامِرَةً وَرَدَّ تَوْحِيْدَهَا شِرْكٌ وطُغْيَانُ) (ذكرها الخفاجي)

(كذا المَرِيَّةُ دَارُ الصَّالحِينَ فَكَمْ قُطْبٍ بِهَا عَلَمٌ بَحْرٌ لهُ شَانُ) (ذكرها الخفاجي)

تَبْكِيْ الحَنيفيّةُ البيضَاءُ مِن أَسَفٍ كما بَكَى لِفِرَاقِ الإلفِ هَيْمَانُ

على دِيارٍ مِن الإسلامِ خَالِيَةٍ قَدْ (أقْفَرَتْ) أسلمت ولهَا بالكُفْرِ عُمْرَانُ (نفح الطيب)

حَيْثُ المساجِدُ قَدْ أَمْسَتْ (صارت) كَنَائِسَ ما فيْهِنَّ إلا نَواقِيْسٌ وصُلْبَانُ (ذكرها الخفاجي)

حتى المَحَارِيبُ تَبْكِي وهيَ جامِدَةٌ حتَّى المَنَابِرُ تَرْثِي(تَبْكِي) وهي عِيدانُ (ذكرها الخفاجي)

يا غَافِلاً ولهُ في الدَّهْرِ موعِظَةٌ إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يَقْظانُ

وماشِيَاً مَرِحَاً يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ أبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرْءَ أوْطانُ

تِلْكَ المُصِيبَةُ أنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا ومَا لَهَا مَعْ طُولِ (طَوِيلِ) الدَّهْرِ نِسْيَانُ (ذكرها الخفاجي)

يا أيُّها المَلِكُ البَيضَاءُ رايتُهُ أَدرِك بِسَيْفِكَ أهلَ الكُفْرِ لا كانوا

يا رِاكِبِيْنَ عِتَاقَ الخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنَّهَا في مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ

وحَامِلِيْنَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنَّها في ظَلامِ (الليلِ) النَّقْعِ نِيْرَانُ (ذكرها الخفاجي)

ورَاتِعِينَ وَرَاءَ البَحْرِ في دَعَةٍ لَهُمْ بِأَوطَانِهِم عِزٌّ وسُلْطَانُ

أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِن (أمرِ) أهلِ أندَلُسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيْثِ القَوْمِ رُكْبَانُ (ذكرها الخفاجي)

كَم يَسْتَغِيْثُ بَنُو المُسْتَضعَفِيْنَ (صَنَادِيدُ الرِجَالِ) (بِنا المُسْتَضعَفُونَ) (ذكرها الخفاجي – نفح الطيب)

وهُمْ أسْرَى وقَتْلَى فما يَهْتَزُّ إنْسَانُ

ماذا التَّقاطُعُ في الإسلامِ بَيْنَكُمُ وأنتُمُ يا عِبَادَ اللهِ إخْوانُ

ألاَ نُفُوسٌ أبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ أمَا عَلَى الخَيْرِ أنْصَارٌ وأَعْوَانُ

يا مَن لِذِلَّةِ قومٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ أحالَ حالَهُمُ كُفرٌ وطُغْيَانُ

يَا مَن لِنُصْرَةِ قَوْمٍ قُسِّمُوا فِرَقَاً سَطَا عَلَيْهِم بِها كُفْرٌ وطُغْيَانُ (ذكرها الخفاجي)

بِالأمْسِ كَانُوا مُلُوكَاً في مَنَازِلِهِمْ واليومَ هُمْ في بِلادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ

فَلَو تَرَاهُم حَيَارى لا دَلِيْلَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ مِن ثِيَابِ الذُّلِّ ألْوَانُ

ولو رَأَيْتَ بُكَاهُم عِنْدَ بَيْعِهِمُ لهَالَكَ الأَمْرُ واسْتَهْوتْكَ أحْزَانُ

يا رُبَّ أُمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بَينَهُمَا كَمَا تفَرَّقُ أرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ

وطِفلَةٍ ما رأتْها الشَّمْسُ إذ بَرَزَتْ كأنَّهَا هيَ ياقُوتٌ ومَرْجَانُ

وطِفلَةٍ مِثلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إذ طَلَعَتْ (نفح الطيب)

وغَادَةٍ ما رأتْها الشَّمْسُ بارِزَةً كأنَّمَا هيَ ياقُوتٌ ومَرْجَانُ (ذكرها الخفاجي)

يقُودُهَا العِلْجُ لِلمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً والعَيْنُ بَاكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْرَانُ

يقُودُهَا عِلْجٌ عِنْدَ السَّبْيِ صَاغِرَةً والعَيْنُ بَاكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْرَانُ (ذكرها الخفاجي)

لِمثْلِ هَذَا يَذُوْبُ القَلْبُ مِن كَمَدٍ إنْ كَانَ في الْقَلْبِ إسْلاَمٌ وإِيمَانُ

*

هَلْ لِلجِهَادِ بها مِن طَالِبٍ فَلَقَدْ تَزَخْرَفَتْ جَنَّةُ الْمأْوَى لَها شَانُ (ذكرها الخفاجي)

وأشْرَفَ الحُورُ والوِلدَانُ مِن غُرَفٍ فازَتْ لعَمْرِى بِهذا الخيْرِ شُجْعَانُ (ذكرها الخفاجي)

ثم الصَّلاةُ على المُختارِ مِن مُضَرٍ مَا هَبَّ رِيحُ الصَّبَا واهْتَزَّ أغْصَانُ (ذكرها الخفاجي)

* انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف، وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته، ومن له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة، وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك

بالمشرق والمغرب، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات، وقد بينت ذلك في " أزهار الرياض " فليراجع.

وصالح بن شريف الرّنديّ صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس (* نفح الطيب)

* أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (ص٤٧)

القصيدة ـ مع التعليق

*** قال شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني (المتوفى: ١٠٤١هـ)**

(وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته / قاله بعد الانتهاء من القصيدة)

ومن مشهور ما قيل في ذلك قول الأديب الشهير أبي البقاء صالح بن شريف الرندي رحمه الله تعالى (نفح الطيب)

ولله در الإمام العلامة خاتمة أدباء الأندلس، أبي الطيب صالح أبن شريف الزندي رحمه الله إذ قال يندب بلاد الأندلس، ويبعث العزائم ويحركها من أهل الإسلام لنصرة الدين، وانقاذ البلاد من يد الكافرين، ولسان الحال ينشده " لقد أسمعت لو ناديت حياً ".

لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ ... فلا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيْشِ إنْسَانُ

هيَ الأمورُ كَما شَاهَدْتُها دُوَلٌ (١) **... مَن سَرَّهُ زمنٌ ساءتْهُ أزْمانُ**

وهذهِ الدَّارُ لا تُبقِي على أَحدٍ ... ولا يَدُومُ على حالٍ لها شانُ

(وعَالَمَ الكَوْنِ لا تَبقَى محاسِنُه ... ولا يَدُوْمُ على حالٍ لَهَا شَانُ) (ذكرها الخفاجي)

يمُزِّقُ الدَّهرُ (مِنَّا) حتماً كلَّ سَابِغَةٍ ... إذا نَبَتْ مَشْرَفِيَّات وخُرْصانُ (ذكرها الخفاجي)

---

١ – قال الله ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾

ويَنْتَضِي كلَّ سَيفٍ للفَناءِ ولو ... كان ابنَ ذِى يَزَنٍ والغِمْدُ غُمْدانُ (٢)

أينَ المُلُوكُ ذوو التِّيجانِ مِن يَمَنٍ ... وأينَ منهم أكاليلٌ وتيجانُ

وأين ما شادَهُ شَدَّادُ من إرَمٍ ... وأين ما سَاسَهُ في الفُرْسِ سَاسَانُ

وأينَ ما حَازَهُ قَارُونُ مِن ذَهَبٍ ... وأينَ عادٌ (٣) وشدَّادٌ وقَحْطانُ

أتىَ على الكُلِّ أَمْرٌ لا مَردَّ لَهُ ... حتى قَضَوا فَكَأنَّ (الكلَّ) القومَ ما كانُوا (ذكرها الخفاجي)

وصَارَ مَا كَانَ مِن مُلْكٍ ومِن مَلِكٍ ... كَما حَكَى عن خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنانُ

دارَ الزَّمانُ على دَارَا وقَاتِلِهِ ... وأَمَّ كِسْرَى فما آواهُ إيوَانُ

كأنّما الصَّعْبُ لم يَسْهُلْ لَهُ سَبَبٌ (٤) ... يومًا (ولم يِمْلِكِ) ولا مَلَكَ الدُّنْيَا سُلَيْمانُ (ذكرها الخفاجي)

فَجائعُ الدَّهرِ أنواعٌ مُنوَّعةٌ ... وللزَّمانِ مَسرَّاتٌ وأحْزانُ

ولِلْمَصَائِبِ (وللحوادِثِ) ... سُلْوانٌ (٥) يُهَوِّنُها (يُسَهِّلُها) (نفح الطيب)

وَما لِمَا حَلَّ بالإسلامِ سُلْوَانُ

قال الخليل: الغمد بكسر الغين غلاف السيف

٢– سيف ابن ذي يزن صاحب اليمن وله قصة ذكرها بن هشام

في السيرة – وغمدان بضم الغين اسم قبة سيف بن ذي يزن

٣– قال الله (فَهَلْ تَرَى لَهُمْ مِنْ بَاقِيَةٍ)

٤– ذو القرنين وليس على ذلك دليل مرفوع الى النبي ﷺ

٥– ما يُسلِّي ويذهب الحزنَ والهمّ

دَهَى الجزيرةَ (٦) (خَطْبٌ) أمرٌ لا عَزَاءَ لهُ هَوىَ له أُحُدٌ وانْهَدَّ ثَهْلانُ (٧) (ذكرها الخفاجي)

أصابَهَا العَينُ في الإسْلامِ (فامْتُحِنَتْ) فارْتُزِئَت حتى خلَتْ منهُ أقْطارٌ وبُلْدانُ (نفح الطيب)

فَاسألْ بَلَنْسِيَةً (٨) ما شأْنُ مُرْسَيةٍ (٩) وأينَ شاطِبَةٌ أَمْ أَيْنَ جَيَّانُ (١٠)

٦- الأندلس قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة، وفي كل إقليم منها عدة مدنٍ، والركن الواحد من أركانها الثلاثة هو الموضع الذي فيه صنم قادس بين المغرب والقبلة، والركن الثاني شرقي الأندلس بين مدينة نربونة ومدينة برذيل بإزاء جزيرتي ميورقة ومنورقة، والركن الثالث حيث يتعطف البحر من الجوف إلى المغرب حيث المنارة في الجبل الموفى على البحر والأندلس شأمية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها

٧- قال صاحب العين ثَهْلانُ: اسم جبلٍ بالبادية معروف،

٨- بلنسية قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) شرق الأندلس، بينها وبين قرطبة على طريق بجانة ستة عشر يوماً، وعلى الجادة ثلاثة عشر يوماً. وهي مدينة سهلية، وقاعدة من قواعد الأندلس، في مستوٍ من الأرض، عامرة القطر، كثيرة التجارات، وبها أسواق وحط وإقلاع، وبينها وبين البحر ثلاثة أميال. وهي على نهرٍ جارٍ ينتفع به، ويسقى المزارع، ولها عليه بساتين، وجنات، وعمارات متصلة.
والسفن تدخل نهرها، وسورها مبنى بالحجر والطوابى، ولها أربعة أبواب، وهي من أمصار الأندلس الموصوفة، وحواضرها المقدمة، ولأهلها حسن زيٍ، وكرم طباع، والغالب عليهم طيب النفوس، والميل إلى الراحات، وهي في أكثر الأمور راخية الأسعار، كثيرة الفواكه والثمار، جامعة لخيرات البر والبحر، ولها أقاليم كثيرة، وهي في الجزء الرابع من قسمة قسطنطين.

٩- مرسية قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) هي قاعدة تدمير على نهر كبير يسقى جميعها كنيل مصر، ولها جامع جليل، وحمامات وأسواق عامرة، وهي راخية أكثر الدهر، رخيصة الفواكه، كثيرة الشجر والأعناب وأصناف الثمار، وبها معادن فضةٍ غزيرة متصلة المادة؛ وكانت تصنع بها البسط الرفيعة الشريفة؛ ولأهل مرسية حذق بصنعتها وتجويدها لا يبلغه غيرهم.

وأين قُرْطُبَةٌ (١١) دارُ العُلومِ فكم من عالِمٍ قد سما فيها لهُ شانُ
وأَيْنَ حِمْصٌ (١٢) وما تَحويهِ مِن نُزَهٍ(تُرَهٍ) ونَهْرُها العَذْبُ فَيَّاضٌ وَمْلآنُ (ذكرها الخفاجي)

١٠– جيان قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) بينها وبين بياسة ستون ميلاً، وهي كثيرة الخصب، رخيصة الأسعار، كثيرة اللحوم والعسل؛ ولها زائد على ثلاثة آلاف قرية، كلها يربى فيها دود الحرير، وبها جنات وبساتين ومزارع وغلات القمح والشعير والباقلاء وسائر الحبوب؛ وعلى ميل منها نهر بلون وهو نهر كبير عليه أرحاء كثيرة جداً، وبها مسجد جامع وعلماء جلة. وجيان في سفح جبل عالٍ جداً، وقصبتها من القصاب الموصوفة بالحصانة وهي من أغر المدن وشريف البقاع، وفي داخلها عيون وينابيع مطردة، ومنها عين ثرة عذبة، عليها قبو من بناء الأول، ولها بركة كبيرة عليها كان حمام الثور، فيه صورة ثورٍ من رخامٍ وحمام الولد، وهما للسلطان، وحمام ابن السليم، وحمام ابن طرفة، وحمام ابن إسحاق، وتسقى بفضلته بسائط عريضة، ومن عيونها عين البلاط، عليها قبو للأول، وماؤها لا ينقص في زمان من الأزمان، على هذه العين حمام يعرف بحمام حسين، وتسقى بها أيضاً أرض كثيرة، ومن عيونها عين سطرون، وماؤها غزير نمير وعليها سقى كثير؛ والأرحاء الطاحنة على أبواب المنازل بجيان، والجنات بظهور البيوت؛ وجامع جيان مشرف يصعد إليه على درجٍ من جميع نواحيه، وهو من خمس بلاطات على أعمدة رخام، وله صحن كبير حوله سقائف، ... وهو من وبكورة جيان أقاليم عدة، وبها أسواق كثيرة، وسوقها الجامع يوم وكورتها من أشرف الكور، وهي أشبه الكور بكورة إلبيرة في طيب بقعتها، ووفور غلتها، ورفع بذرها، وكثرة خيرها؛ وجزيرتها تفوق جزيرة إلبيرة طيباً.
ومن أمثال العامة: يذكر البلدان، ويسكن جيان!؛ ولها أقاليم كثيرة، وقرىً عامرة، وعمائر واسعة.

١١– قرطبة قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) قاعدة الأندلس، أم مدائنها – ا.هـ
وقد ذكنا طرفاً من صفتها في الخاتمة

١٢– حمص هي اشبيلية قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) مدينة بالأندلس جليلة بينها وبين قرطبة مسيرة ثلاثة أيامٍ، ومن الأميال ثمانون. وهي مدينة قديمة أزلية وهي كبيرة عامرة لها أسوار حصينة، وأسواقها عامرة، وخلقها كثير، وأهلها مياسير، وجل تجارتهم الزيت يتجهزون به إلى المشرق والمغرب برا وبحراً فيجتمع هذا الزيت من الشرف، وهو مسافة أربعين ميلاً كلها في ظل شجر الزيتون والتين، أوله مدينة إشبيلية، وآخره مدينة لبلة، وسعته اثنا عشر ميلاً، وفيه ثمانية آلاف قريةٍ عامرةٍ بالحمامات والديار الحسنة، وبين الشرف وإشبيلية ثلاثة أميال.
ومدينة إشبيلية موفية على النهر الكبير، وهو في غربيها

(كذا طُلَيْطُلَةٌ (١٣) دارُ العلوم فَكَمْ مِن فاضِلٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَه شَانُ) (ذكرها الخفاجي)

(وأين غَرْناطَةٌ (١٤) دارُ الجهادِ وكَمْ أُسْدٍ بِها وهُم في الحَرْبِ عُقْبانُ) (ذكرها الخفاجي)

١٣ – (طُلَيْطَلَةُ) قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) طليطلة بالأندلس، بينها وبين البرج المعروف بوادي الحجارة خمسة وستون ميلاً، وهي مركز لجميع بلاد الأندلس، لأن منها إلى قرطبة تسع مراحل، ومنها إلى بلنسية تسع مراحل أيضاً، ومنها إلى المرية في البحر الشأمى تسع مراحل أيضاً. وطليطلة عظيمة القطر، كثيرة البشر، وهي كانت دار الملك بالأندلس حين دخلها طارق؛ وهي حصينة، لها أسوار حسنة، وقصبة حصينة، وهي أزلية من بناء العمالقة، وهي على ضفة النهر الكبير، وقل ما يرى مثلها إتقاناً وشماخة بنيانٍ، وهي عالية الذرى، حسنة البقعة، ولها قنطرة من عجائب البنيان، وهي قوس واحدة، والماء يدخل تحتها بعنفٍ وشدة جريٍ، ومع آخر القنطرة ناعورة، وارتفاعها في الجو تسعون ذراعاً، وهي تصعد الماء إلى أعلى القنطرة، ويجري الماء على ظهرها فيدخل المدينة.

١٤ – قال المقري غرناطة كانت غرناطة منتهى الآمال، ووسطى قلادة الأمصار، ولم تزل محاسنها مجلوة على منصة الدهور والأعصار. وقد استولى وصفها لسان الدين الوزير أبو عبد الله بن الخطيب في كتاب الإحاطة، ويرحم الله القائل:

غرناطة ما لها نظير ... ما مصر ما الشام ما العراق ما هي إلاّ العروس تجلى ... والأرض من جملة الصداق

قال (أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري) مدينة بالأندلس، بينها وبين وادي آش أربعون ميلاً، وهي من مدن إلبيرة. وقصبتها بجوفيها، وهي من القصاب الحصينة، وجلب الماء إلى داخلها من عينٍ عذبةٍ تجاورها، والنهر المعروف بنهر فلوم ينقسم عند مدينتها قسمين: قسم يجري في أسفل المدينة، وقسم يجري في أعلاها، يشقها شقاً، فيجري في بعض حماماتها، وتطحن الأرحاء عليه خلال منازلها، ومخرجه من جبلٍ هناك، وتلقط في جرية مائه برادة الذهب الخالص، ويعرف بالذهب المدتى، ومقبرة إغرناطة بغربيها عند باب إلبيرة وفحص إلبيرة أزيد من مسافة يومٍ في مثله يصرفون فيه مياه الأنهار كيف شاؤوا كل أوان، ومن جميع الأزمان، وهو أطيب البقاع نفعةً، وأكرم الأرضين تربة، ولا يعدل به مكان غير غوطة دمشق وشارحة الفيوم، ولا تعلم شجرة تستعمل وتستغل إلا وهي أنجب شيء في هذا الفحص، وما من فاكهةٍ توصف وتستظرف إلا وما هناك من الفاكهة فوقها، ويجود فيها من ذلك ما لا يجود إلا بالساحل من اللوز وقصب السكر وما أشبههما. وحرير فحص إلبيرة هو الذي ينتشر في البلاد، ويعم الآفاق، وكتان هذا الفحص يربو جيده على كتان النيل، ويكثر حتى يصل إلى أقاصي بلاد المسلمين، وبإلبيرة معادن جوهرية من الذهب والفضة والصفر والحديد والرصاص والتوتيا، وجبل الثلج هو جبل يشرف على جبل إلبيرة.

(وأين حَمْراؤُها العَلْيا وزُخْرُفُهَا كأنَّها من جِنانِ الخُلْدِ عَدْنانُ) (ذكرها الخفاجي)

فَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانَ البِلادِ فَما عَسَى (البُكاءُ) البَقاءُ إذا لم تَبْقَ أَرْكَانُ (ذكرها الخفاجي)

(وَالماءُ يَجْرِي بِسَاحَاتِ القُصُورِ بِها قَدْ حَفَّ جَدوَلَهَا زَهْرٌ وَرَيْحَانُ)

(وَنَهْرُها العَذْبُ يَحْكِي في تَسَلْسُلِهِ سُيُوفَ هِنْدٍ لَها في الجوِّ لَمَعانُ)

(وأينْ جَامِعُهَا المشْهُوْرُ كَمْ تُلِيَتْ في كلِّ وقْتٍ بِهِ آيٌ وفُرْقانُ)

(وعَالِمٌ كانَ فِيها لِلْجَهُولِ هُدَى مُدَرِّسٌ ولَهُ في العِلْمِ تِبْيَانُ)

(وعابِدٌ خاضِعٌ للهِ مُبْتَهِلٌ والدَّمعُ مِنْهُ على الخَدَّينِ طُوفَانُ)

(وأينَ مَالَقَةٌ (١٥) مَرْسَى المراكِبِ كمْ أرْسَتْ بِسَاحَتِهَا فُلْكٌ وغُرْبانُ)

(وكَم بِداخِلِهَا مِن شَاعِرٍ فَطِنٍ وذِي فُنُونٍ لَهُ حِذْقٌ وتِبْيانُ)

(وكَمْ بِخَارِجِها مِن مَنْزَهٍ فَرِجٍ وَجَنَّةٍ حَوْلَهَا نَهْرٌ وبُسْتَانُ)

(وأينَ جَارَتُها الزَّهْرَاء وقُبَّتُها وأينَ يا قَومُ أَبْطَالٌ وفُرْسَانُ)

(وأيْنَ بَسْطَةُ (١٦) دَارُ الزَّعْفَرانِ فَهَلْ رَآى شَبِيْهَاً لَها في الحُسْنِ إنسَانُ)

١٥– مالقة قال (أبو عبد الله محمد الحميري) مدينة على شاطئ البحر، عليها سور صخرٍ والبحر في قبلتها، وهي حسنة عامرة آهلة، كثيرة الديار، وفيما استدار بها من جميع جهاتها شجر التين المنسوب إليها، وهي تحمل إلى مصر والشأم والعراق، وربما وصل إلى الهند، وهو من أحسن التين طيباً وعذوبةً، ولها ربضان كبيران، وشرب أهلها من الآبار، ولها وادٍ يجري في زمان الشتاء، وليس بدائم الجرى.

١٦– بسطة قال (أبو عبد الله محمد الحميري) مدينة بالأندلس بالقرب من وادي آش، وهي متوسطة المقدار، حسنة الموضع، عامرة، آهلة، حصينة، ذات أسواقٍ، وبها تجارات، وفعلة بضروب الصناعات، وبينها وبين جيان ثلاث مراحل؛ وهي من كور جيان، وشجر التوت فيها كثير وعلى قدر ذلك غلة الحرير والزيتون، وسائر الثمار بها على مثل ذلك من الكثرة، وأرضها عذاة كثيرة الريع، وبها كانت طرز الوطاء البسطى من الديباج الذي لا يعلم شفيرها، وبها جبل يعرف بجبل الكحل، لا يزال ينقر منه كحل أسود، يزيد بزيادة القمر، وينقص بنقصانه، لم يزل على ذلك من قديم الدهر.

(وكَمْ شُجَاعٍ زَعِيْمٍ في الوَغَى بَطَلٍ بدَا له في العِدى فَتْكٌ وإمْعانُ)

(كم جَنْدلتْ يدُهُ مِن كافرٍ فَغدا تبْكيهِ مِن أرْضِهِ أهلٌ وولدَانُ)

(ووَادياً مَن غدَتْ بِالكُفرِ عامِرَةً وَرَدَّ تَوْحِيْدَهَا شِرْكٌ وطُغْيَانُ) (ذكرها الخفاجي)

(كذا المَرِيَّةُ دَارُ الصَّالحِينَ فَكَمْ قُطْبٍ بِهَا عَلَمٌ بَحْرٌ لهُ شَانُ) (ذكرها الخفاجي)

تَبْكِيْ الحَنيفيّةُ البيضَاءُ مِن أَسَفٍ كما بَكَى لِفِرَاقِ الإلفِ هَيْمَانُ

على دِيارٍ مِن الإسلامِ خَالِيَةٍ قَدْ (أقْفَرَتْ) أسلمت ولهَا بالكُفْرِ عُمْرَانُ (نفح الطيب)

حَيْثُ المساجِدُ قَدْ أَمْسَتْ (صارت) كَنَائِسَ ما فيْهِنَّ إلا نَواقِيْسٌ وصُلْبَانُ (ذكرها الخفاجي)

حتى المَحَارِيبُ تَبْكِي وهيَ جامِدَةٌ حتَّى المَنَابِرُ تَرْثِي(تَبْكِي) وهي عِيدانُ (ذكرها الخفاجي)

يا غَافِلاً ولهُ في الدَّهْرِ موعِظَةٌ إنْ كُنْتَ في سِنَةٍ فالدَّهْرُ يَقْظانُ

وماشِيَاً مَرِحَاً يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ أبَعْدَ حِمْصٍ تَغُرُّ المرْءَ أوْطانُ

تِلْكَ المُصِيبَةُ أنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا ومَا لَهَا مَعْ طُولِ(طَوِيلِ) الدَّهْرِ نِسْيَانُ (١٧) (ذكرها الخفاجي)

يا أيُّها المَلِكُ البَيضَاءُ رايتُهُ أَدرِك بِسَيْفِكَ أهلَ الكُفْرِ لا كانوا

يا رِاكَبِيْنَ عِتَاقَ الخَيْلِ ضَامِرَةً كَأَنَّهَا في مَجَالِ السَّبْقِ عِقْبَانُ

وحَامِلِيْنَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً كَأَنَّها في ظَلامِ (الليلِ)النَّقْعِ نِيْرَانُ (ذكرها الخفاجي)

ورَاتِعِينَ (١٨) وَرَاءَ البَحْرِ في دَعَةٍ (١٩) لَهُمْ بِأَوطَانِهِم عِزٌّ وسُلْطَانُ

١٧– وعامة الناس اليوم لا يكاد يعرف اسمها وأنها كانت من قلاع المسلمين ثم أُخذت والله المستعان

١٨– الرَّتْعُ: الأكل والشّرب في الربيع رغداً .

١٩– دعة: رفه

أَعِنْدَكُمْ نَبَأٌ مِن (أمرِ) أهلِ أندَلُسٍ فَقَدْ سَرَى بِحَدِيْثِ القَوْمِ رُكْبَانُ (ذكرها الخفاجي)

كَم يَسْتَغِيْثُ بَنُو المُسْتَضعَفِيْنَ (صَنَادِيدُ الرِجَالِ) (بِنا المُسْتَضعَفُونَ) (ذكرها الخفاجي – نفح الطيب)

وهُمْ أسْرَى وقَتْلَى فما يَهْتَزُّ إنْسَانُ

ماذا التَّقاطُعُ في الإسلامِ بَيْنَكُمُ وأنتُمُ يا عِبَادَ اللهِ إخْوانُ

ألاَ نُفُوسٌ أبِيَّاتٌ لها هِمَمٌ أمَا عَلَى الخَيْرِ أنْصَارٌ وأَعْوَانُ

يا مَن لِذِلَّةِ قومٍ بَعْدَ عِزِّهِمُ أحالَ حالَهُمُ كُفرٌ وطُغْيَانُ

يَا مَن لِنُصْرَةِ قَوْمٍ قُسِّمُوا فِرَقاً سَطَا عَلَيْهِم بِها كُفْرٌ وطُغْيَانُ (ذكرها الخفاجي)

بِالأمْسِ كَانُوا مُلُوكاً في مَنَازِلِهِمْ واليومَ هُمْ في بِلادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ

فَلَو تَرَاهُم حَيَارى لا دَلِيْلَ لَهُمْ عَلَيْهِمُ مِن ثِيَابِ الذُّلِّ أَلْوَانُ

ولو رَأَيْتَ بُكَاهُم عِنْدَ بَيْعِهِمُ لهَالَكَ الأَمْرُ واسْتَهْوتْكَ أحْزَانُ

يا رُبَّ أُمٍّ وطِفْلٍ حِيلَ بَينَهُمَا كَمَا تفَرَّقُ أرْوَاحٌ وَأَبْدَانُ

وطِفلَةٍ ما رأتْها الشَّمْسُ إذ بَرَزَتْ كأنَّهَا هيَ ياقُوتٌ ومَرْجَانُ

وطِفلَةٍ مِثلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إذ طَلَعَتْ (نفح الطيب)

وغَادَةٍ ما رأتْها الشَّمْسُ بارِزَةً كأنَّمَا هيَ ياقُوتٌ ومَرْجَانُ (ذكرها الخفاجي)

يقُودُهَا العِلْجُ (٢٠) لِلمَكْرُوهِ مُكْرَهَةً والعَيْنُ بَاكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْرَانُ

يقُودُهَا عِلْجٌ عِنْدَ السَّبْيِ صَاغِرَةً والعَيْنُ بَاكِيَةٌ والقَلْبُ حَيْرَانُ (ذكرها الخفاجي)

٢٠– العِلجُ: العَيْرُ. والعِلْجُ: الرجل من كفَّار العَجَم، والجمع عُلوجٌ وأعلاجٌ كذا في الصحاح

لِمثْلِ هَذَا يَذُوْبُ القَلْبُ مِن كَمَدٍ إنْ كَانَ في الْقَلْبِ إسْلاَمٌ وإيمَانُ

*

هَلْ لِلجِهَادِ بها مِن طَالِبٍ فَلَقَدْ تَزَخْرَفَتْ جَنَّةُ الْمأْوَى لَها شَانُ (ذكرها الخفاجي)

وأشْرَفَ الحُورُ والولدَانُ مِن غُرَفٍ فازَتْ لعَمْرِى بِهذا الخيْرِ شُجْعَانُ (ذكرها الخفاجي)

ثم الصَّلاةُ على المُختارِ مِن مُضَرٍ مَا هَبَّ رِيحُ الصَّبَا واهْتَزَّ أغْصَانُ (ذكرها الخفاجي)

* انتهت القصيدة الفريدة، ويوجد بأيدي الناس زيادات فيها ذكر غرناطة وبسطة وغيرهما مما أخذ من البلاد بعد موت صالح بن شريف، وما اعتمدته منها نقلته من خط من يوثق به على ما كتبته، ومن له أدنى ذوق علم أن ما يزيدون فيها من الأبيات ليست تقاربها في البلاغة، وغالب ظني أن تلك الزيادة لما أخذت غرناطة وجميع بلاد الأندلس إذ كان أهلها يستنهضون همم الملوك بالمشرق والمغرب، فكأن بعضهم لما أعجبته قصيدة صالح بن شريف زاد فيها تلك الزيادات، وقد بينت ذلك في " أزهار الرياض " فليراجع.

وصالح بن شريف الرّنديّ صاحب القصيدة من أشهر أدباء الأندلس (* نفح الطيب)

* أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض (ص٤٧)

قرطبة – الأندلس

قال أبو عبد الله مُحَمَّد الحميري قرطبة قاعدة الأندلس، أم مدائنها ومستقر خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تذكر؛ وهم أعلام البلاد، وأعيان الناس؛ اشتهروا بصحة المذهب، وطيب المكسب، وحسن الزى، وعلو الهمة، وجميل الأخلاق؛ وكان فيها أعلام العلماء، وسادة الفضلاء؛ وتجارها مياسير، وأحوالهم واسعة؛ وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً، وبين المدينة والمدينة سور حاجز؛ وفي كل مدينة ما يكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات؛ وطولها من غربيها إلى شرقيها ثلاثة أميال، وعرضها من باب القنطرة إلى باب اليهود ميل واحد. وهي في سفح جبل مطلٍ عليها، يسمى جبل العروس، ومدينتها الوسطى هي التي فيها باب القنطرة.

وفيها المسجد الجامع المشهور أمره، الشائع ذكره؛ من أجل مصانع الدنيا كبر مساحةٍ، وأحكام صنعةٍ، وجمال هيئةٍ، وإتقان بنيةٍ؛ تهمم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادةً بعد زيادة، وتتميماً إثر تتميم، حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن حسنه الوصف؛ فليس في مساجد المسلمين مثله تنميقاً وطولاً وعرضاً؛ طوله مائة با ع، وعرضه ثمانون باعاً، ونصفه مسقف، ونصفه صحن بلا سقف؛ وعدد قسى مسقفه تسع عشرة قوساً، وسوارى مسقفه بين أعمدته وسوارى قببه صغاراً وكباراً مع سوارى القبلة الكبرى وما يليها ألف ساريةٍ؛ وفيه مائة وثلاث عشرة ثريا للوقيد، أكبرها واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلها تحمل اثنى عشر مصباحاً، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر والطرطوشى، ارتفاع حد الجائزة منه شبر وافر، وفي عرض شبرٍ إلا ثلاثة أصابع، في طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبراً؛ وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة؛ وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش مالا يشبه بعضها بعضاً، قد أحكم تزيينها، وأبدع تلوينها؛ بأنواع الحمرة والبياض والزرقة والخضرة والتكحيل، فهي تروق العين وتستميل النفوس، بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها. وسعة كل بلاطٍ من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبراً؛ وبين العمود والعمود خمسة عشر شبراً؛ ولكل عمود منها رأس رخامٍ وقاعدة رخامٍ ولهذا الجامع قبلة يعجز الواصفون عن وصفها وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسفساء المذهب والملون ما بعث به صاحب القسطنطينة العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله؛ وعلى وجه المحراب سبع قسيٍ قائمة على عمد، طول كل قوس أنيف من قامة، وكل هذه القصى موجهة صنعة القوط، قد أعجزت المسلمين والروم بغريب أعمالها، ودقيق صنعها؛ وعلى أعلى الكل كتابان منحوتان بين بحرين من الفسيفساء المذهب في أرض الزجاج اللازوردى، وعلى وجه المحراب أنواع كثيرة من التزيين والنقوش، وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران واثنان زرزوريان لا تقوم بمال، وعلى رأس المحراب خصة رخام قطعة واحدة مشبوكة منصعة بأبدع التنميق من الذهب واللازورد وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشبٍ، بها من أنواع النقش كل غريبة، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعةً، خشبه آبنوس وبقس وعود المجمر، يقلل

إنه صنع في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير من يخدمهم تصرفاً؛ وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطشوت ذهبٍ وفضةٍ وحسك، وكلها لو قيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان؛ وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله، فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان " رضه " الذي خطه بيمينه، وفيه نقطة من دمه؛ ويخرج هذا المصحف في صبيحة كل يومٍ، يتولى إخراجه قوم من قومه المسجد وللمصحف غشاء بديع الصنعة، منقوش بأعزب ما يكون من النقش، وله كرسي يوضع عليه، ويتولى الإمام قراءة نصف حزب فيه، ثم يرفع إلى موضعه. وعن يمين المحراب والمنبر باب يفضى إلى القصر بين حائطى الجامع في ساباط متصل، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب: منها أربعة تنغلق من جهة القصر، وأربعة تنغلق من جهة الجامع؛ ولهذا الجامع عشرون باباً مصفحةً بصفائح النحاس وكواكب النحاس؛ وفي كل باب منها حلقتان في نهاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفص المتخذ من الآجر الأحمر المحكوك، أنواع شتى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق: وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة الغريبة الصنعة، الجلية الأعمال، الرائقة الشكل والمثال؛ ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشى، منها ثمانون ذراعاً إلى الموضع الذي يقف فيه المؤذن، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعاً؛ ويصعد إلى أعلى هذا المنار بمدرجين، أحدهما من الجانب الغربي والثاني من الشرقي؛ إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلا إذا وصلا الأعلى. ووجه هذه الصومعة مبطن بالكذان، منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة بصنعةٍ تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة. وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صفان من قسيٍ دائرةٍ على عمد الرخام، وبيت له أربعة أبواب معلقة يبيت فيه كل ليلة مؤذنان. وعلى أعلى القبه التي على البيت ثلاث تفاحات ذهباً، واثنان من فضة، وأوراق سوسنية؛ تسع الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلاً من الزيت، ويخدم الجامع كله ستون رجلاً، وعليهم قائم ينظر في أمورهم. فهذا ما حكاه مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن إدريس.

وقرطبة على نهرٍ عظيم، عليه قنطرة عظيمة من أجل البنيان قرارا، وأعظمه خطرا؛ وهي من الجامع في قبلته وبالقرب منه فانتظم به الشكل. قالوا: وبأمر عمر بن عبد العزيز قام على نهر قرطبة الجسر الأعظم الذي لا يعرف في الدنيا مثله، وحول الأندلس من عمل إفريقية، وجرد لها عاملاً من قبله، ووقعت المغانم فيها عن أمره. وذكر أن تفسير قرطبة بلسان القوط قرظبة بالظاء المعجمة، ومعنى ذلك بلسانهم القلوب المختلفة وقيل إن معنى قرظبة آخر فاسكنها. ودور مدينة قرطبة في كمالها ثلاثون ألف ذراع؛ ولها من الأبواب باب القنطرة، وهو بقبليها، ومنه يعبر النهر على القنطرة، والباب الجديد وهو شرقيها، وباب عامر وهو بين الغرب والجوف منها وغيرها، وقصر مدينة قرطبة بغربيها متصل بسورها القبلي والغربي؛ وجامعها بإزاء القصر من جهة الشرق، وقد وصل بينهما بساباط يسلك الناس تحته من المحجة العظمى التي بين الجامع والقصر إلى باب القنطرة، وكان طول مسقف البلاطات من المسجد الجامع، وذلك من القبلة إلى الجوف قبل الزيادة، مائتين وخمسا وعشرين ذرعاً، والعرض من الشرق إلى الغرب قبل الزيادة مائة ذراع وخمس أذرع، ثم مازاد الحكم في طوله في القبلة مائة ذراع وخمس

أذرع، فكمل الطول ثلاثمائة ذراع وثلاثين ذراعاً؛ وزاد محمد بن أبي عامر بأمر هشام بن الحكم في عرضه من جهة المشرق ثمانين ذراعاً، فتم العرض بمائتين وثلاثين ذراعاً. وكان عدد بلاطاته أحد عشر بلاطاً، عرض أوسطها ستة عشر ذراعاً، وعرض كل واحدٍ من اللذين يليانه شرقاً واللذين يليانه غرباً أربعة عشر ذراعاً؛ وعرض كل واحدٍ من الستة الباقية إحدى عشر ذراعاً؛ وزاد محمد بن أبي عامر فيه ثماني بلاطات، عرض كل واحدٍ عشر أذرع. وطول الصحن من المشرق إلى المغرب مائة وثمانٍ وعشرون ذراعاً، وعرضه من القبلة إلى الجوف مائة واحدة وخمس أذرع؛ وعرض السقائف المستديرة بصحنه عشرة أذرع؛ فتكسيره ثلاثة وثلاثون ألف ذراع ومائة وخمسون ذراعاً. وعدد أبوابه تسعة: ثلاثة في صحنه غرباً وشرقاً وجوفاً، وأربعة في بلاطات: اثنان غربيان واثنان شرقيان، وفي مقاصير النساء من السقائف بابان. وجميع ما فيه من الأعمدة ألف عمود ومائتا عمود وثلاثة وتسعون عموداً، رخام كلها. وقباب مقصورة الجامع مذهبة، وكذلك جدار المحراب وما يليه قد أجرى فيه الذهب على الفسيفساء، وثريات المقصورة فضة محضة؛ وارتفاع الصومعة اليوم وهي من بناء عبد الرحمن بن محمد، ثلاث وسبعون ذراعاً إلى أعلى القبة المفتتحة التي يستدير بها المؤذنون، وفي رأس هذه القبة تفاح ذهبٍ وفضةٍ، وارتفاعها إلى مكان الأذان أربع وخمسون ذراعاً، وطول كل حائطٍ من حياطانها على الأرض ثماني عشرة أذرع، وعدد المساجد بقرطبة على ما أحصى وضبط أربعمائة وإحدى وتسعون مسجداً.

وأحواز قرطبة تنتهي في المغرب إلى أحواز إشبيلية، وتأخذ في الجوف ستين ميلاً، ويختلط أحوازها في الشرق بأحواز جيان. وعلى الجملة فقد كانت أم البلاد وواسطة عقد الأندلس، وحوت من الأكابر من أهل الدنيا والآخرة، من الملوك والعلماء والصالحين والمفتين وغيرهم خلقاً، ومتعوا فيها ما أراد الله عز وجل، وذلك حين كان جدها صاعداً؛ وبعد ذلك طحنتها النوائب، واعتورتها المصائب؛ وتوالت عليها الشدائد والأحداث؛ فلم يبق من أهلها إلا البشر اليسير على كبر اسمها، وضخامة حالها؛ وقنطرتها التي لا نظير لها، وعد أقواسها تسع عشرة قوساً، بين القوس والقوس خمسون شبراً، ولها ستائر من كل جهة تستر القامة، وارتفاعها من موضع المشى إلى وجه الماء، في أيام جفوف الماء وقلته، ثلاثون ذراعاً؛ وتحت القنطرة يعترض الوادي برصيف مصنوع من الأحجار والعمد الجافية من الرخام؛ وعلى السد ثلاث بيوت أرحاء، في كل بيت منها أربعة مطاحن. ومحاسن هذه المدينة وشماختها أكثر من أن يحاط بها خبراً. فلما عثر جدها، وخوى نجمها، وضعف أمر الإسلام، واختلفت بالجزيرة كلمته، تغلب عليها النصارى، وحكموا عليها في أواخر شوال من سنة ٦٣٣.

الأندلس

هذه الجزيرة في آخر الإقليم الرابع إلى المغرب، هذا قول الرازي، وقال صاعد ابن أحمد في تأليفه في طبقات الحكماء: معظم الأندلس في الإقليم الخامس وجانب منها في الرابع كإشبيلية ومالقة وقرطبة وغرناطة والمرية ومرسية.

واسم الأندلس في اللغة اليونانية إشبانيا، والأندلس بقعة كريمتة طيبة كثيرة الفواكه، والخيرات فيها دائمة، وبها المدن الكثيرة والقواعد العظيمة، وفيها معادن الذهب والفضة والنحاس والرصاص والزيبق واللازورد والشب والتوتيا والزاج والطفل.

والأندلس آخر المعمور في المغرب لأنها متصلة ببحر أقيانس الأعظم الذي لا عمارة وراءه، ويقال: إن أول من اختط الأندلس بنو طوبال بن يافت بن نوح، سكنوا الأندلس في أول الزمان، وملوكهم مائة وخمسون ملكاً، ويقال إن الأندلس خربت وأقفرت وانجلى عنها أهلها لمحلٍ أصابهم فبقيت خالية مائة سنةٍ، ثم وقع ببلاد إفريقية محل شديد ومجاعة عظيمة فرقت أهلها، فلما رأى ملك إفريقية ما وقع ببلاده اتخذ مراكب وشحنها بالرجال، وقدم عليهم رجلاً من إفريقية ووجههم، فرمى بهم البحر إلى حائط إفرنجة وهم يومئذ مجوس، فوجههم صاحب إفرنجة إلى الأندلس.

وقيل اسمها في القديم: إبارية، ثم سميت بعد ذلك: باطقة، ثم سميت: إشبانيا من اسم رجل ملكها في القديم كان اسمه إشبان، وقيل سميت بالإشبان الذين سكنوها في الأول من الزمان، وسميت بعد ذلك بالأندلس من أسماء الأندليش الذين سكنوها.

وسميت جزيرة الأندلس بجزيرة لأنها شكل مثلث وتضيق من ناحية شرق الأندلس حتى تكون بين البحر الشأمى والبحر المظلم المحيط بالأندلس خمسة أيام، ورأسها العريض نحو من سبعة عشر يوماً، وهذا الرأس هو في أقصى المغرب في نهاية انتهاء المعمور من الأرض محصور في البحر المظلم، ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف منه بشر على خبرٍ صحيحٍ لصعوبة عبوره وإظلامه، وتعاظم موجه وكثرة أهواله، وتسلط دوابه وهيجان رياحه، حسبما يرد ذلك في موضعه اللائق به إن شاء الله تعالى، وبلاد الأندلس مثلث الشكل كما قلناه.

ويحيط بها البحر من جميع جهاتها الثلاث؛ فجنوبيها يحيط به البحر الشأمى، وجوفيها يحيط به البحر المظلم، وشماليها يحيط به بحر الأنقليشيين من الروم، وطول الأندلس من كنيسة الغراب التي على البحر المظلم إلى الجبل المسمى بهيكل الزهرة ألف ميل ومائة ميلٍ، وعرضها ستمائة ميلٍ.

والأندلس أقاليم عدة ورساتيق جملة، وفي كل إقليم منها عدة مدنٍ، والركن الواحد من أركانها الثلاثة هو الموضع الذي فيه صنم قادس بين المغرب والقبلة، والركن الثاني شرقي الأندلس بين مدينة نربونة ومدينة برذيل بإزاء جزيرتي ميورقة ومنورقة، والركن الثالث حيث يتعطف البحر من الجوف إلى المغرب حيث المنارة في الجبل الموفى على البحر، وفيه الصنم العالي المشبه بصنم قادس، وهو في البلد الطالع على بلد برطانية.

والأندلس شأمية في طيبها وهوائها، يمانية في اعتدالها واستوائها، هندية في عطرها وذكائها، أهوازية في عظم جبايتها، صينية في جواهر معادنها، عدنية في منافع سواحلها؛ وفيها آثار عظيمة لليونانيين أهل الحكمة وحاملي الفلسفة، وكان من ملوكهم الذين أثروا الآثار بالأندلس هرقلش، وله الأثر في الصنم بجزيرة قادس، وصنم جليقية، والأثر في مدينة طركونه الذي لا نظير له.

وفي غربي شنترين على مقدار خمسين ميلا فيما بين أشبونة وشنترة، في جبلٍ هناك كان حصناً فيما مضى، يوجد الحجر اليهودي، وهو على شكل البلوط سواء، ومن خاصيته تفتيت الحصى التي تكون في المثانة والكلية ويقع في الأكحال، وفي جوفي بطليوس على قدر أربعين ميلاً معدن المهى.

والأندلس دار جهاد وموطن رباط، وقد أحاط بشرقيها وشماليها وبعض غربيها أصناف أهل الكفر؛ وروى عن عثمان ﷺ أنه كتب إلى من انتدب إلى غزو الأندلس: أما بعد فإن القسطنطينية إنما تفتح من قبل الأندلس، وإنكم إن فتحتموها كنتم شركاء من يفتحها في الأخير والسلام؛ وعن كعب الأحبار أنه قال: يعبر البحر إلى الأندلس أقوام يفتحونها يعرفون بنورهم يوم القيامة. ودخل الأندلس رجل واحد من أصحاب النبي " – ﷺ – "، قال عبد الملك بن حبيب: اسمه المنذر الإفريقي، وإنه يروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال: من قال رضيت بالله ربا إلى آخرها فأنا الزعيم لآخذن بيده وأدخله الجنة! ودخلها من التابعين حنش بن عبد الله الصنعاني وهو الذي أسس جامع سرقسطة وكان مع عليٍ " رضه " بالكوفة، فلما قتل على " رضه " انتقل إلى مصر وقبره بسر قسطة معروف، ومنهم على بن رباح اللخمي، وعمرو بن العاصي، وعلقمة بن عامر، وأبو عبد الرحمن عبد الله الجبلي الأنصار، وعياض بن عقبة الفهرى، وموسى بن نصير، يقال بكرى ويقال لخمى؛ ويقال إن نصيرا من سبى عين التمر أعتقه صبيح مولى أبي العاص بن أمية، يقال أصابه خالد في علوج عين التمر وادعوا أنهم من بكر بن وائلٍ، فصار نصير وصيفاً لعبد العزيز بن مروان وأعتقه فمن أجل هبذا يختلف في نسبه؛ وعقد الوليد لموسى على إفريقية سنة٨٣، وكان مولد موسى سنة١٩ في خلافة عمر " رضه "، وكان معاوية " رضه " قد جعل نصيراً أبا موسى على حرسه، فلم يقاتل معه عليا " رضه "، فقال له معاوية " رضه ": ما منعك من الخروج على علي ولم تكاف يدي عليك؟ فقال: لم يمكنني أن أشكرك بكفر من هو أولى بشكرى منك، فقال: ومن هو؟ قال: الله عز وجل! ومسافة ما يملكه المسلمون من الأندلس ثلاثمائة فرسخٍ طولاً في ثمانين فرسخاً عرضاً؛ والذي يملك منها النصارى مثل ما يملكه المسلمون أو نيفا، ثم حدث فيها من تغلب الثوار ما أضاع ثغورهم وأذهب أكثر بلادهم، ولم يبق من ذلك إلا الأقل. وبها الجبال المشهورة والحمامات الكثيرة.

قال الرازي: أول من سكن الأندلس بعد الطوفان على ما يذكره علماء عجمها قوم يعرفون بالأندلس بشين معجمة بهم سمى البلد ثم عرب، وكانوا أهل تمجسٍ فحبس الله تعالى عنهم المطر حتى غارت عيونها ويبست أنهارها، فهلك أكثرهم وفر من قدر على الفرار منهم فأقفرت الأندلس وبقيت خالية مائة عامٍ، وملكها إشبان ابن طيطش، وهو الذي غزا الأفارقة وحاصر ملكهم بطالقة، ونقل رخامها إلى إشبيلية وبه سميت، فاتخذها دار مملكته وكثرت جموعه فعلا في الأرض وغزا من إشبيلية إيلياء بعد سنتين من ملكه، خرج إليها في السفن وهدمها، وقتل من اليهود مائة ألفٍ واسترق مائة ألفٍ، وفرق في البلاد مائة ألف، وانتقل رخام إيلياء وآلاتها إلى الأندلس؛ والغرائب التي أصيبت في مغانم الأندلس كمائدة سليمان التي ألفاها طارق ابن زياد بكنيسة طليطلة، وقليلة الدر التي ألفاها موسى بن نصير بكنيسة ماردة، وغيرهما من الذخائر، إنما كانت مما حازه صاحب الأندلس من غنيمة

بيت المقدس إذ حضر فتحها مع بخت نصر.

وذكروا أن الخضر وقف بإشبان هذا وهو يحرث الأرض بفدانٍ له أيام حداثته فقال: يا إشبان، إنك لذو شأنٍ، وسوف يحظيك زمان، ويعلي سلطان، فإذا أنت تغلبت على إيلياء فارفق بورثة الأنبياء! فقال له إشبان: أساحر أنت رحمك الله أني يكون هذا، وأنا ضعيف مهين حقير؟ فقال: قدر ذلك من قدر في عصاك اليابسة ما تراه! فنظر إشبان إلى عصاه فرآها قد أورقت، فريع لما رأى وذهب الخضر عنه؛ وقد وقر ذلك الكلام في نفسه والثقة بكونه، فترك الامتهان وداخل الناس، وصحب أجل الناس وسما به جده فارتقى في طلب السلطان حتى نال منه عظيما، وكان ملكه عشرين سنة، واتصلت مملكة الإشبان بعده إلى أن ملك منهم الأندلس خمسة وخمسون ملكاً، ثم دخل عليهم من عجم رومة أمة أخرى تعرف بالشبونقات، وذلك زمان مبعث المسيح عليه السلام، فملكوا الأندلس وإفرنجة معها واتخذوا دار مملكتهم مدينة ماردة واتصلت مملكتهم إلى أن ملك منهم أربعة وعشرون ملكاً، ويقال إن منهم كان ذو القرنين.

ثم دخل على هؤلاء الشبونقات أمة القوط فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من يؤمئذٍ عن صاحب رومة وانفردوا بسلطانهم واتخذوا مدينة طليطلة دار سلطانهم؛ ودخشوش ملك القوط هو أول من تنصر من هؤلاء، فدعا الحواريين ودعا قومه إلى النصرانية، وكان أعدل ملوكهم وأحسنهم سيرةً، وهو الذي أصل النصرانية؛ والإنجيلات أو المصاحف الأربعة من انتساخه وجمعه وتثقيفه؛ فتنافست ملوك القوط بالأندلس بعده حتى غلبهم عليها العرب؛ وعدد من ملك منهم إلى آخرهم وهو لذريق ستة وثلاثون ملكاً.

والذريق لم يكن من أبناء الملوك ولا بصحيح النسب في القوط، وإنما نال الملك من طريق الغصب والتسور عندما مات غيطشة الملك وكان أثيراً لديه فاستصغر أولاده واستمال طائفةً من الرجال مالوا إليه فانتزع الملك من ولد غيطشة، وغيطشة آخر ملوك القوط بالأندلس، ولى سنة٧٧ من الهجرة فملك خمسة عشرة سنة.

وكانت طليطلة دار المملكة بالأندلس حينئذٍ، وكان بها بيت مغلق متحامى الفتح يلزمه من ثقات القوط قوم قدو كلوا به لئلا يفتح، قد عهد الأول في ذلك إلى الآخر، كلما ملك منهم ملك زاد على البيت قفلاً، فلما ولى لذريق عزم على فتح الباب والاطلاع على ما في البيت، فأعظم ذلك أكابرهم، وتضرعوا إليه في الكف فأبى، وظن أنه بيت مالٍ، ففض الأقفال عنه ودخله فأصابه فارغاً لا شيء فيه إلا تابوتاً عليه قفل، فأمر بفتحه فألفاه أيضاً فارغاً ليس فيه إلا شقة مدرجة قد صورت فيها صور العرب على الخيول وعليهم العمائم، متقلدي السيوف، متنكبي القسى، رافعي الرايات على الرماح، وفي أعلاها كتابة بالعجمية فقرئت فإذا هي: إذا كسرت هذه الأقفال من هذا البيت وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فإن الأمة المصورة فيه تغلب على الأندلس وتملكها، فوجم لذريق وعظم غمه وغم العجم وأمر برد الأقفال وإقرار الحراس على حالهم.

وكان من سير الأعاجم بالأندلس أن يبعث أكابرهم إلى بساط الملك ليتأدبوا بأدبه، وينالوا من كراماته، حتى إذا بلغوا أنكح بعضهم بعضا استئلافاً لآبائهم، وحمل صدقاتهم وتولى تجهيز إناثهم إلى أزواجهن؛ فاتفق أن فعل ذلك

يليان عامل لذريق على سبتة، وجه ابنةً له بارعة الجمال تكرم عليه، فوقعت عين لذريق عليها فأعجبته فاستكرهها على نفسها واحتالت حتى أعلمت أباها بذلك سراً بمكاتبةٍ خفيةٍ، فأحفظه شأنها وقال: ودين المسيح لأزيلن سلطانه! وكان امتعاضه من فاحشة ابنته السبب لفتح الأندلس بالذي سبق من قدر الله سبحانه؛ ثم إن يليان ركب بحر الزقاق من سبتة في أصعب الأوقات في شهر يناير، وأقبل حتى احتل بطليطلة حضرة لذريق، فأنكر عليه مجيئه في ذلك الوقت وسأله عن السبب في ذلك، فذكر له أن زوجته اشتد شوقها إلى ابنتها التي عنده، وتمنت لقاءها قبل الموت، وألحت عليه في إحضارها، وأحب إسعافها بها، وسأل الملك إخراجها إليه وتعجيل إطلاقه للمبادرة بها؛ ففعل وأجاز الجارية، وتوثق منها بالكتمان عليه، وأفضل عليها وعلى أبيها وانقلب عنه.

وذكر أنه لما دخل عليه قال له لذريق: إذا أنت قدمت علينا فاستفره لنا من الشذانقات! فقال له: أيها الملك، والمسيح لأدخلن عليك شذانقات ما دخل عليك بمثلها قط! يعرض له بما أضمره من السعي في إدخال رجال العرب الأندلس عليه، وهو لا يفطن؛ فلم يتنهنه يليان إذ وصل سبته أن تهيأ للمسير نحو موسى بن نصير، فأتاه بإفريقية، فحرضه على غزو الأندلس ووصف له حسنها وفوائدها وفضلها، وهون عليه حال رجالها، فعاقده موسى على الانحراف إلى المسلمين وسامه مكاشفة أهل ملته من أهل الأندلس، ففعل يليان ذلك وحل بساحل الجزيرة الخضراء، فقتل وسبى وغنم وأقام بها أياماً يشن الغارات، وشاع الخبر عند المسلمين، فآنسوا بيليان، وذلك عقب سنة ٩٠.

وكتب موسى بن نصير إلى الوليد يعلمه بما دعاه إليه يليان ويستأذنه في افتتاح الأندلس، فكتب إليه الوليد أن خضها بالسرايا حتى تختبر شأنها ولا تغرر بالمسلمين في بحرٍ شديد الأهوال، فراجعه أنه ليس ببحرٍ وإنما هو خليج يتبين للناظر ما وراءه، فكتب إليه: وإن كان فلا بد من اختباره بالسرايا! فبعث موسى عند ذلك رجلاً من مواليه من البربر اسمه طريف بن ملوك المعافى يكنى أبا زرع في أربعمائة رجلٍ فعبر بهم ونزل في الجزيرة المنسوبة إليه؛ ثم أغار على الجزيرة الخضراء ونواحيها فأصاب سبياً لم ير موسى فميا أصابه مثله حسناً، وأصاب مالاً جسيماً وأمتعة، وذلك في شهر رمضان من سنة ٩١

فلما رأى ذلك الناس أسرعوا إلى الدخول، فدعا موسى مولىً له كان على مقدماته يسمى طارق بن زياد، قيل هو فارسي وقيل هو من الصدف وقيل ليس بمولى، وقيل هو بربري من نفزه، فعقد له وبعثه في سبعة آلاف من البربر والموالى، ليس فيهم عربي إلا القليل. فهيأ له يليان المراكب وحل بجبل طارق يوم سبت في شعبان من سنة ٩٢، وهو من شهور العجم شهر أغشت، وقيل في رجب من السنة، في اثنى عشر ألفاً غير ستة عشر رجلاً لم يكن فيهم من العرب إلا القليل.

وأصاب طارق عجوزاً من أهل الجزيرة فقالت له: كان لي زوج عالم بالحدثان، وكان يحدث عن أميرٍ يدخل بلدنا هذا ويصفه ضخم الهامة وأنت كذلك! ومنها أن بكتفه الأيسر شامةً عليها شعر، فإن كانت بك هذه الشامة

فأنت هو، فكشف طارق ثوبه فإذا بالشامة على كتفه كما ذكرت العجوز، فاستبشر بذلك هو ومن معه.

وذكر عن طارق أنه كان نائماً في المركب فرأى في منامه النبي " – ﷺ – " والخلفاء الأربعة يمشون على الماء حتى مروا به، فبشره النبي " – ﷺ – " بالفتح وأمره بالرفق على المسلمين والوفاء بالعهد؛ وفي حكايةٍ إنه لما ركب البحر غلبته عيناه فرأى النبي " – ﷺ – " وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف، وتنكبوا القسى، فيقول له النبي: يا طارق تقدم لشأنك! ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه فهب من نومه مستبشراً وبشر أصحابه ولم يشك في الظفر، فنزل بالجبل شاناً للغارات في البسائط، ولذريق يومئذٍ غائب في غزاةٍ له، واتصل به الخبر فعظم عليه أمره، وفهم الخبر الذي أتى منه مع يليان، وأقبل مبادراً في جموعه حتى احتل بقرطبة أياماً والجنود تتوافى عليه، وكان في وجهته ولى ششبوت بن الملك غيطشه ميمنته وأخاه ميسرته، وهما الولدان الذان سلبهما ملك أبيهما، فبعثا إلى طارق يسألانه الأمان إذا مالا إليه عند اللقاء بمن معهما، وعلى أن يسلم إليهما ضياع والدهما غيطشة إن ظفر، فأجابهما طارق إلى ذلك، وعاقدهما عليه؛ فلما التقى الجمعان انحاز هذان الغلامان إلى طارق، فكان ذلك سبب الفتح، وكان الطاغية لذريق في ستمائة ألف فارسٍ.

وقد خرجت عن حكم الاختصار الذى التزمت في هذا الوضع فلنقتصر على هذا القدر، وأما ذكر بلاد الأندلس فتأتى في مواضعها اللائقة بها إن شاء الله تعالى.

وافتتحت الأندلس في أيام الوليد بن عبد الملك، فكان فتحها من أعظم الفتوح الذاهبة بالصيت في ظهور الملة الحنيفية؛ وكان عمر بن عبد العزيز معتنياً بها، مهتماً بشأنها، وهو الذي قطعها عن نظر وإلى إفريقية وجرد لها عاملاً من قبله.

صفة جزيرة الأندلس أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله بن عبد المنعم الحِميرى (ص١٥٣)

(أشعار في وصف الأندلس)

قال شهاب الدين أحمد بن محمَّد المقري

ومن أحسن ما جاء من النظم في الأندلس قول ابن سفر المريني، والإحسان له عادة:

في أرض أندلسٍ تلتذّ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سرّاء
وليس في غيرها بالعيش منتفعٌ ... ولا تقوم بحق الأنس صهباء
وأين يعدل عن أرضٍ تحضّ بها ... على المدامة أمواهٌ وأفياء
وكيف لا يبهج الأبصار رؤيتها ... وكلّ روضٍ بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضةٌ، والمسك تربتها ... والخزّ روضتها، والدّرّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ يرقّ به ... من لا يرقّ، وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآلي الطّلّ أنداء
وإنّما أرج النّدّ استثار بها ... في ماء وردٍ فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنّفه ... وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
قد ميّزت من جهات الأرض حين بدت ... فريدةً وتولّى ميزها الماء
دارت عليها نطاقاً أبحرٌ خفقت ... وجداً بها إذ تبدّت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزّهر من طربٍ ... والطير يشدو وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوضٌ ... فهيّ الرّياض، وكلّ الأرض صحراء

ولله درّ ابن خفاجة حيث يقول:

إن للجنّة بالأندلس ... مجتلى مرأى ريّا نفس
فسنا صبحتها من شنبٍ ... ودجى ظلمتها من لعس
فإذا ما هبّت الريح صباً ... صحت واشوقي إلى الأندلس وقد تقدمت هذه الأبيات

ولبعضهم

ولله أندلسٌ وما جمعت بها ... من كل ما ضمّت لها الأهواء
فكأنّما تلك الديار كواكبٌ ... وكأنّما تلك البقاع سماء
وبكلّ قطر جدولٌ في جنّةٍ ... ولعت به الأفياء والأنداء وقال غيره:
في أرض أندلسٍ تلتذّ نعماء ... ولا يفارق فيها القلب سرّاء
وليس في غيرها بالعيش منتفعٌ ... ولا تقوم بحقّ الماء صهباء
وأين يعدل عن أرضٍ تحض بها ... على الشهادة أزواجٌ وأبناء
وأين يعدل عن أرضٍ تحثّ بها ... على المدامة أفياءٌ وأنداء
وكيف لا تبهج الأبصار رؤيتها ... وكلّ أرضٍ بها في الوشي صنعاء
أنهارها فضةٌ، والمسك تربتها ... والخز روضتها، والدّرّ حصباء
وللهواء بها لطفٌ يرق به ... من لا يرقّ، وتبدو منه أهواء
ليس النسيم الذي يهفو بها سحراً ... ولا انتشار لآلي الطل أنداء
وإنّما أرج الند استثار بها ... في ماء وردٍ فطابت منه أرجاء
وأين يبلغ منها ما أصنّفه ... وكيف يحوي الذي حازته إحصاء
قد ميزت من جهات الأرض ثم بدت ... فريدةً، وتولّى ميزها الماء
دارت عليها نطاقاً أبحرٌ خفقت ... وجداً بها إذ تبدّت وهي حسناء
لذاك يبسم فيها الزهر من طربٍ ... والطير يشدو، وللأغصان إصغاء
فيها خلعت عذاري ما بها عوضٌ ... فهي الرياض وكل الأرض صحراء.

وقال آخر:
حبذا أندلسٌ من بلدٍ ... لم تزل تنتج لي كلّ سرور
طائرٌ شادٍ، وظلٌّ وارفٌ ... ومياهٌ سائحاتٌ وقصور وقال آخر:
يا حسن أندلسٍ وما جمعت لنا ... فيها من الأوطار والأوطان
تلك الجزيرة لست أنسى حسنها ... بتعاقب الأحيان والأزمان

نسج الربيع نباتها من سندسٍ ... موشيّةٍ ببدائع الألوان

وغدا النسيم بها عليلاً هائماً ... بربوعها وتلاطم البحران

يا حسنها والطلّ ينثر فوقها ... درراً خلال الورد والرّيحان

وسواعد الأنهار قد مدّت إلى ... ندمائها بشقائق النّعمان

وتجاوبت فيها شوادي طيرها ... والتفّت الأغصان بالأغصان

ما زرتها إلاّ وحيّاني بها ... حدق البهار وأنمل السّوسان

من بعدها ما أعجبتني بلدةٌ ... مع ما حللت به من البلدان

نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – المؤلف: شهاب الدين أحمد بن محمّد المقري التلمساني (ص٢٢٦)

وقال ولله درّه (كتاب المغرب لابن سعيد) ، فإنّه أبدع في هذا الكتاب ما شاء، وقسمه إلى أقسام، منها:

كتاب وشي الطرس، في حلى جزيرة الأندلس وهو ينقسم إلى أربعة كتب:

الكتاب الأول: كتاب " حلي العرس، في حلى غرب الأندلس ".

الكتاب الثاني: كتاب " الشفاه اللّعس، في حلى موسطة الأندلس ".

الكتاب الثالث: "كتاب الأنس في حلى شرق الأندلس ".

(فهرس المحتويات العامة)

موضوع	الصفحة
مقدمة	٥
ترجمة الأديب	٩
القصيدة – بدون تعليق	٢٩
القصيدة – مع التعليق	٣٤
قرطبة – الأندلس	٤٣
(أشعار في وصف الأندلس)	٥١
الفهرس – المراجع	٥٤

(المراجع)

القران – السنة

١– أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض – شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني

٢– نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب – شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني

٣– ريحانة الألبّا وزهرة الحياة الدنيا – شهاب الدين أحمد بن مُحَمَّد بن عمر الخفاجي

٤– صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار

٥– الصحاح تاج اللغة للفارابي (اللغة)

٦– كتاب العين للفراهيدي (اللغة)

٧– الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة – أبو عبد الله مُحَمَّد الأوسي المراؤي

٨– الإحاطة في أخبار غرناطة لسان الدين ابن الخطيب

رثاء الأندلس
(لأبي البقاء الرندي)
(رحمه الله – ق٧هـ)
*
لِكُلِّ شَيءٍ إذا مَا تَمَّ نُقْصَانُ
فَلا يُغَرَّ بِطِيبِ العَيشِ إنسَانُ
جمع الشيخ
عِيسَى بْنُ مُحَمَّد الشَّامِيّ (ق ١٥هـ)
كنوز الأندلس

تم بحمد الله

كنوز الإنجليز